في شأن الله

أو

تاريخ السودان كما يرويه أهله

تأليف:

محمد احمد الجابري

الناشر

دار الفكر العربي

فى شأن الله

أو

تاريخ السودان كما يرويه أهله

تأليف

محمد احمد الجابرى

الناشر

دار الفكر العربى

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أما بعد فقد طلب إلى صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابرى تقديم رسالته « فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله » إلى أبناء الوادى الأفاضل الذين يهمهم الوقوف على كل ما يكتب أو يقال عن السودان وعن أهله بحثا وراء الحقيقة وإرواء لظمأ حب الاستطلاع والمعرفة فأحجمت فى بادىء الأمر لأسباب عدة منها أنى لا أعد نفسى من زمرة الراسخين فى العلم الذين أفنوا العمر فى البحث والأطلاع والكتابة والنشر حتى تصدروا صفوف العلماء والمتعلمين وبزوا الباحثين والمؤلفين فبعد صيتهم وارتاحوا إلى ما أدركوا من شهرة واسعة اتيح لهم الاكتفاء بتنميق المقدمات لكل كتاب يطبع وازجاء المقالات فى تعريف أصحاب المؤلفات إلى جمهور القراء الكرام . وإن كنت قد نزلت فى آخر الأمر على رأى صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابرى فحرصت على التقديم لكتابه القيم . فانما أفعل ذلك مستحييا وحسبى شفيعا لى عند القارىء الكريم تلك السنوات العشرين التى قضيتها فى

دراسة وتدريس تاريخ القطرين الشقيقين مصر والسودان — وما وانجزته من بحوث — على وجه الخصوص فى نفس الموضوع الذى يكتب فيه اليوم الأستاذ الجابرى وفضلا على أن التقديم لهذه الرسالة التى بأيدى القارىء الكريم يعد فى حدذاته متعة وأى متعة . ذلك بأن الأستاذ محمد أحمد الجابرى من الرجال المصريين القلائل الذين قضوا فى خدمة حكومة السودان سنوات عدة واختلطوا بالسودانيين قبائلهم وعشائرهم فعرف عاداتهم وأخلاقهم وأدرك كثيرين ممن حضروا الوقائع التى دون أخبارها فى رسالته وكان لروابط النسب والمصاهرة التى ربطت بينه وبين الأسر الكريمة فى القطر الشقيق أعظم الأثر فى أن يركن إليه السودانيون ينقلون إليه أخبارهم على حقيقتها — و يكشفون له عن خفايا نفوسهم ويطلعونه على هواجسهم ويبسطون له أمانيهم .

واندمج الأستاذ محمد أحمد الجابرى فى أوساط السودانيين اندماجا تاما فتذوق آدابهم وحفظ أشعارهم و (أزجالهم) وعرف ما تنطوى عليه أمثالهم وأقوالهم من معان لايدركها سوى السودانيون أنفسهم بل أنتهى به الأمر إلى إتقان لهجات ولغات العشائر والقبائل السودانية العربية والزنجية على السواء . أضف إلى هذا أن الأستاذ لم تنقطع صلاته بالسودان وأهله بسبب اعتزاله الخدمة ، بل أن هذه الصلات ما زالت بفضل الله نامية وطيدة يقصده أفاضل السودانيين عند زيارتهم للقاهرة ، يتحدثون إليه فى أخص شئونهم ويمدونه بفيض من المعلومات الصحيحة عما يجرى ويحدث بالسودان . حتى أصبح الأستاذ بحق بمثابة موسوعة

من الموسوعات التى لا غنى لكل باحث فى شئون السودان وتاريخه عن الرجوع إليها ، والانتهال منها ، وإنى ليطيب لى أن أذكر فى هذا المقام ما سبق أن ذكرته عند تصدير كتابى الأخير « الحكم المصرى فى السودان » أنه كان لارشادات الأستاذ الحكيمة أفضل الأثر فى إخراج ذلك الكتاب فى صورته التى نشر بها . أضف إلى هذا أن هناك كثيرين غيرى حرصوا على الانتفاع بمواهبه فكان الأستاذ محمد احمد الجابرى أحد الجنود الذين أقبلوا على العمل فى خدمة قضية الوادى المقدسة من غير جلبة ولا ضوضاء تحدوهم الرغبة الصادقة فى إعلاء شأن الوطن وتحقيق أمانى البلاد المشروعة فى وحدتها المقدسة .

والكتاب الذى بايدينا جديد فى أسلوبه وطريقته ويسد نقصا ظاهرا فى كل ما كتب ونشر عن السودان وأهله . ذلك بان المؤرخين الذين تناولوا قصة السودان ، حرصوا على دراسة الوثائق والأوراق الحكومية وبحث ما كتبه الرحالون والمعاصرون الأجانب من مطبوع ومخطوط قبل أن يسجلوا وقائع هذه القصة ويحاولوا تفسير دقائقها وهذه جهود حميدة تقتضيهم أن يبذلوها ولا شك اساليب البحث العلمى الحديث . ومع ذلك فاتهم شىء واحد أو قل أنهم أرغموا إرغاما على إغفال ناحية هامة من نواحى هذه الدراسة الواسعة ، هى موقف السودانيين أنفسهم من الحوادث التى كانت تجرى ببلادهم وآراؤهم فيها ، وتفسيرهم لها ونظرهم إليها منذ أن بدأ السودان يأخذ بأسباب الحضارة والرقى على يد محمد على إلى الوقت الذى اندلع فيه لهيب الثورة

المهدية . وسبب هذا الإغفال واضح جلى فقد عرف السودانى بالذكاء وحباه المولى عز وجل بقريحة وقادة وذاكرة حافظة واعية . فاعتمد السودانيون على الرواية بنقل الأحفاد عن أجداد والأبناء عن الآباء، أخبار الوقائع وتفاصيلها ، وصاروا يضنون بتسجيلها فلم يصل إلى أيدينا سوى تواريخ ثلاثة مشهورة معروفة . الأول كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان لصاحبه محمد ضيف الله بن محمد الفضلى الجعلى المتوفى فى عام ١٨٠٩ والثانى فى مدينة ستار وهو مخطوط ، نسخه كثيرون وأضافوا إليه زيادات وصلت بحوادثه الى عام ١٨٧١ ميلادية وجاء ما دون فيه بعد دخول المصريين إلى السودان ، والثالث كتاب السودان المصرى والإنكليز ، وهو عبارة عن مجموعة رسائل نشرتها جريدة الأهرام الغراء قبل أن يضم شتاتها كتاب واحد فى عام ١٨٩٦ وصاحب هذه الرسائل الشيخ محمود القبانى ويعد سودانيا وإن كان مولدا من أب ترکی وأم صعيدية نزح إلى السودان وعاش طويلا بين أهله وتزوجت أخت له من محمد أحمد المهدى وقد عمر الشيخ طويلا وما يزال على قيد الحياة ، يسكن حلة حمد فى الخرطوم بحرى ، وحضر أكثر الوقائع السودانية من أيام غردون ووقف على دقائق الثورة المهديه وشهد ذيوعها وانتشارها . وكتاب الشيخ القبانى فريد فى نوعه لأن صاحبه حاول أن يبرزه فى صورة ظاهرة ما كان يختلج فى نفوس السودانيين من عواطف ويجول فى أذهانهم من أفكار وخواطر نتيجة لرد الفعل الذى نجم من تلك

الاجراءات التعسفية التى عمد إلى اتخاذها بيكر وغردون وأعوانهما من الحكام ، الكفار ، تحت ستار إبطال الرق والقضاء على النخاسة فى السودان . وقد نجح الشيخ القبانى فى إظهار العلاقة بين ذلك كله وبين ظهور دعوة محمد أحمد وذيوع المهدية فى السودان ولعل أهم ما يسترعى النظر فى كل ما كتبه الشيخ القبانى . أن السودانيين كانوا يعتقدون أعتقادا جازما بأن الانكليز ، والأنكليز وحدهم هم سبب كل تلك الكوارث التى نزلت بالسودان وأهله وأنهم أصحاب تلك المؤامرة الشائنة التى انتهت بقيام الثورة ، وإرغام مصر على إخلاء القطر الشقيق حتى ينفردوا هم بحكمه ويتوصلوا إلى إنفاذ مآربهم فى تلك البلاد على حد قوله .

وقد حاول الأستاذ محمد أحمد الجابرى فى كتابه الذى بين أيدينا ، أن يكمل فى الحقيقة رسم تلك الصورة التى حاول الشيخ محمود القبانى رسمها منذ نيف وخمسين عاما ذلك بان الشيخ اختص كل مقالاته تقريبا بذكر حوادث الثورة المهدية الأولى فلم يعن بذكر تفصيلات ما كان يلقاه الجلابون وسائر الأهلين من عنت وإرهاق على يد السير صموئيل بيكر وخليفته غردون فى مديرية خط الاستواء بسبب ما اتبعه كلاهما من خطة مصادرة الأموال والأرزاق وسفك الدماء وإزهاق الأرواح ثم ما فعله غردون نفسه عند تعينه حكمدارا للسودان أى حاكما عاما أو عند حضوره لتنفيذ سياسة الاخلاء المدبرة فانبرى الأستاذ الجابرى لبيان الأثر العميق الذى أحدثه ذلك كله فى نفوس الأهلين . وفضلا

عن ذلك فقد اجتمع لدى الأستاذ الجابرى من أقوال السودانيين أنفسهم الذى شهدوا وقائع مطاردة الجلابين والأهلين الوادعين المسالمين فى كردفان ودارفور وبحر الغزال وعاصروا حوادث إعدام سليمان الزبير وقتل الصباحى وهارون ابن ابراهيم سلطان دارفور ما جعله يجزم بأنه لولا هذه المذابح لما علا شأن المهدى فى السودان ولما انتشرت المهدية فى ربوعه لأن استشهاد الزعماء والقادة أمثال سليمان والصباحى وهارون ثم احتجاز الزبير رحمه باشا فى القاهرة ـ كان كل هؤلاء موضع ثقة السودانيين العظيمة ، سرعان ما أخلى الميدان فى السودان لظهور محمد أحمد ، وكان من عوامل الاغراء القوية التى دعت الفقيه الامام لاعلان أنه المهدى المنتظر وكما كانت رسائل الشيخ محمود القبانى تنتظمها فكرة واحدة هى مسعى الانكليز فى تاليب السودانيين على أخوانهم المصريين ونشر المفاسد فى البلاد وإرغام مصر على إخلاء شطر الوادى الجنوبى فان كتاب الأستاذ الجابرى يقوم على فكرة ظاهرة قد تفسر حقيقة هذا السعى أو هذه المؤامرة الانكليزية هى أن سياسته إلغاء الرق وإبطال النخاسة باستخدام السيف والنار تحت ضغط الانكليز ، كانت سببا قاطعا فى إثارة الحقد ضد حكومة الخرطوم وإشعال نار الثورة .

ولما كان المهيمنون على هذه الحكومة من الأورباويين وأهل الليفانت الذين عرفهم السودانيون باسم « الكفار » ، فقد سهل أن تصبغ هذه الثورة الخطيره بصبغة دينية ، وأن يدعو محمد أحمد إلى الجهاد فى سبيل

الله أو « فى شان الله » هـذا النداء الذى اختاره الأستاذ الجابرى عنوانا لكتابه .

وأما مبلغ توفيق الأستاذ فى إبراز هذه الحقائق فإن ذلك من شان القارىء الكريم أن يفصل فيه وحده بعد قراءة هذه الرسالة الممتعة وحسبي أن اختتم هذه الكلمة فاقول أن الأستاذ الجابرى قد أسدى للتاريخ خدمة جليلة فى هذه المحاولة التى أراد أن يكشف بها عن أراء السودانيين أنفسهم فى أسباب ظهور الأمام محمد أحمد واندلاع لهيب الثورة المهدية .

محمد فؤاد شكرى

القاهرة سبتمبر ١٩٤٧

توطئة الكتاب

هذا تاريخ السودان كما يرويه أهله أثرنا تسميته

« فى شان الله »

ترديدا للصيحة الداوية التى عمت السودان وترديدا لقوله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم » فما كاد الامام محمد أحمد يقولها باللغة المحكية حتى خلبت الأذهان وانسابت فى النفوس وصارت تجرى على كل لسان وبفعل الحوادث والاحداث وعوامل الزمان والمكان ، اثارت النخوة فى النفوس وصار الكل من « الانصار » — انصار المهدى — يرددها فكانوا اشبه بنهر طغى وفاض ماؤه من فوق الجسور فاغرق الحقول وخرب المزارع ولم يبق اندفاعه شيئا أمامه .

وهذا التاريخ ما هو الا نتيجة لاقوال صادقة . وثمرة اختبارات شخصية دقيقة ، تحملت فى ضم شتاتها مشقات ، وعانيت فى الوقوف عليها صعوبات ، فقد استقيتها من رجال ميامين كانت لهم مكانة مرموقة بالاجلال فى عهدى « التركية السابقة » و « المهدية » .

ولما كانت اقوالهم تفيض اخلاصا وصدقا — مما لم تستوعبه

الكتب ولا يمكن أن يلم بها أى مكتوب ، فقد اختزنتها وراعيتها فى حكمة وتقدير حتى آن لى أن ادعها تخرج للناس ليرى — ابناء هذا الجيل — رأيهم فيها : سائلا المولى عز وجل أن يوفق الحاضرين لما وقفت دونه جهود السابقين .

وتاريخ السودان هذا بسيط يسرد الحوادث ويصف المآسى لا لقيمة خاصة به بل تبعا لما اثاره فى نفسى من احساس وفى ذهنى من تفكير وهو يعى ما طرأ على السودان فى الفترة من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٨٨٥ ميلادية من حوادث واثار ، وخواطر وافكار ، ووجدانات ومشاعر ، وافعال ومآثر . ومشاهد ومناظر . وتراث الأوائل للاواخر لتعيد الغابر للحاضر ، وتصف اولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل ومفاخرهم ، فى زمن فتن ثائره ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة . وصروف جائرة ، ومكارم بائرة ، ونفوس حائرة . . . . لذا ارجو القارىء الكريم أن لا يحاول تحميل هذه الرسالة اكثر مما تحمل ويتقبلها على علاتها صورة من نفس صاحبها يقدمها الى اقاربه وأصدقائه فى السودان . . . وإذا استطعت أن اصحبهم فى رحلتى الفكرية . وأخفف عنهم ملل الحاضر بمآسى الماضى . فقد نجحت فى أطيب المهمات الى نفسى . أن ارتاد معهم ماضيا يشعرون فيه بشعورى ويفكرون فيه بتفكيرى .

ولست أدعى أنى مورخ فان هذا لقب اسمى من أن أصل إليه . . . ولكن دعنى الفت النظر الى اننى فى الستين من عمرى وانى صرفت

نصف هذا العمر فى السودان . كان لى الحظ أن تزوجت منه ولى أولاد وبنات وصلة رحم بين أطيب العشائر واكرم العائلات . وقد درجت على حب السودان والاعجاب باهله وقضيت أهم أدوار حياتى فى ربوعه : بين الشمال والجنوب . والشرق والغرب ، فتمكنت فى أواصر الحب والإعجاب بأهل السودان : فلما عدت إلى « الريف » أى مصرنا العزيزة استحال الحب والإعجاب إيمانا بكل ما هو سودانى .

كانت حياتى فى السودان متسعة الآفاق متشعبة الأطراف وأن قلبى ليفيض بآلاف الذكريات الكريمة ، وحافظتى لتعى الأحداث العظيمة . ومن العسير أن يمضغ المرء ذكرياته ثم يجترها كما يجتر الجمل علفه أمام ماتبديه الجرائد الانكليزية والصحف الانفصالية من التشنيع بماض مصر فى السودان — حيث يقولون أنه كان عهد استبداد واستعباد ورشوة — فكانت هذه الأسباب - كما يدعون - بواعث الثورة المهدية .

ومن العجب أن أكثر الباحثين والمفكرين فى هذه الأيام الذين تناولوا تاريخ السودان . لم يكتبوا عن بواعث الثورة المهدية كتابة وافية بل تركوا هذه الناحية دون أن يوفوها حقها من البحث والدرس مع أن الثورة المهدية كانت - بلا مراء - السبب الرئيسى لذلك التحول الذى حدث فى مقدمات السودان والذى لولاه لما كانت تلك المحنة التى نعانيها اليوم .

ومما يؤسف له حقاً أنه منذ تدخل الانكليز فى شؤون مصر جرت الاقدار بأن تظل كثيراً من وقائع التاريخ المصرى — السودانى مجهولة أو أن

كتب التاريخ ظلت تجـــد فيما دأبت على إذاعته الأخبار الرسمية معينا لا ينضب تعتمد عليه فى سرد وقائعها فاشتملت هذه الكتب لسوء الحظ على أشياء كثيرة لم يكن بينها وبين الحقيقة أية صلة .

نعم كتبت كتب ودونت رسائل عن السودان فى الفترة التى تلت ظهور النفوذ البريطانى ولكنها قالت أشياء تخالف ما جرت به الحوادث وبعبارة أخرى أن هذه الكتب وتلك الأسفار كانت محاطة بالعناية والرعاية ومتأثرة بالإيحاء والاملاء بفعل المهيمنين على مجرى الأمور فامتلأت الكتب وفاضت الأسفار بالطعن والتشويه وصب أفظع اللعنات على الأتراك والجلابين والنخاسين والأنصار والدراويش ـ أنصار المهدى ودراويشه كأنما هؤلاء كلهم مخلوقات من طينة أخرى فكانوا فى نظر أصحابها عمالقة طغاة ونحن أبناؤهم الفاســدون ، وما كانوا إلا رجالا مثلنا من الآباء والأجداد ــ انحدرنا من أصلابهم بل هم الذين أوجدوا ما فى الأحياء من الأفكار والمشاعر وإليهم ترجع أسباب حركة أهل هذا العصر ـ فالأمة مصيرة بتأثير أمواتها أكثر مما هى مصيرة بتأثير أحيائها .

نقول أنه لما استيقظ الوعى القومى فى مصر وفى السودان وأراد الكتاب والمحدثون أن يكتبوا عن الفترة من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٨٥ لم يجدوا سوى تلك المدونات المغرضة يتلهون فيها وينقلون ما حوته بطونها فجاءت كتاباتهم ملأى بالسباب ـ من حيث لا يشعرون ـ والحط من شأن أولئك الآباء والأجداد ثم صاروا يعدون أعمال المعتدين من الظلمة والطغاة كأنما هى أعمال انسانية تدفع أصحابها الرأفة والرحمة ببنى الإنسان فكانت

معرفتهم بالسودان مستمدة من الكتب التى نشأوا وشبوا على قراءتها فحسب

ولم يكن مجرد منع بيع الرقيق وجلبه ومصادرته فى أعالى النيل المسألة التى أثارت السودانيين ، بل الذى أثارهم وسود الضياء فى عيونهم هو مصادرة الرقيق المولد والموجودة فى حوزة أسياده . وبهذه المصادرة أصبح السودان بمثابة عربة بدون عجل أو كطير بلا ريش ـ فقد ظل الحال ساكنا مدة وجود صموائيل بيكر فى خط الاستواء وفى أثناء مأمورية غردون كذلك ولكن بمجرد أن صار تنصيب غردون حاكما عاما من سنة (١٨٧٧ إلى سنة ١٨٧٩) بعد أن كان حاكما وحسب على مديرية خط الاستواء . لم يلبث أن عانى السودانيون على اختلاف طوائفهم من الاضطهاد والشدة والضيق والجوع والفقر ما لم يسبق له مثيل فى كافة العصور وذلك بفضل أساليب العنف والشدة الصارمة التى اتبعها غردون من أجل تحصيل الطُلبة أى الضريبة ومن أجل القضاء على الرق والنخاسة بالسيف والنار فى ربوع السودان .

وإذا جاز لغردون وصنائعه من الأجانب قتل سليمان الزبير وأعمامه غدرا فى بحر الغزال وهارون الرشيدى فى دارفور والصباحى فى كردفان وقبيلة سلم فى النيل الأبيض بتهمة أنهم عصاة أو متمردين أو جلابة من تجار الرقيق . فما ذنب النساء والأطفال ؟ ما ذنب اليتامى والأيامى الذين قتل آباؤهم ورجالهم ؟ ماذنب هؤلاء حتى يساقوا ذرافات من دارفور إلى كردفان سوق الأغنام حفاة عراة ـ وأى قانون وأى عدل يسوغ لمثل غردون وصنائعه من غلاظ القلوب أن يعملوا على اقفار البيوت

من أهلها وانتهاك حرماتها كما فعلوا فى دارفور وغيرها من البلدان !

رأى العرب — عرب السودان — بعدما دهمتهم المصائب وتوالت عليهم النوائب فهم وصلوا إلى حالة من الخطر لم يسبق لها مثيل فى أحرج الأزمات فما لبثوا أن لموا شعثهم وصحوا مما أصابهم من الذهول ثم وثبوا وثبة الأسود دفاعا عن كيانهم وكيان أمتهم مفضلين الموت فى سبيل الحياة على الموت أذلاء مهانين .

وعلى ذلك فقد نجح غردون فى إيجاد الثورة بما هيأ لها من بواعث وقدم لها من موجبات ولولاه ـ أى غردون ـ لما كان المهدى على حد قول (سدنى لو) فى كتابه « مصر فى دور الانتقال » إذ بعد أن نعى (سدنى لو) على غردون تسرعه فى محاربة الرق واندفاعه الجنونى فى إبطاله فورا دون إمهال كتب (فى صفحة ٦٨) ما نصه :

« لا شك عندى فى أن الحرب الصليبية التى شنها غردون على الرق »
« بلا هواده . كانت الوسيلة المفضية إلى الغرض المقصود : وهو قيام »
« الثورة ضد الحكم المصرى . فلولا غردون لما كان المهدى ذلك أن غردون »
« ما لبث أن أضاف إلى الاستياء الناشىء من تصرفات موظفى الخديوى »
« تصديه متعمدا للمصالح الخاصة باندفاعه الجنونى ضد حيازة الرقيق »
« مما يعتبر اعتداء على الملكية الذاتية فى أخص خصائصها وأقدس أسسها »

وفضلا عن ذلك فقد عنى باظهار هذه الحقيقة أحد معاصرى غردون وممن عملوا فترة من الزمن تحت إدارته هو الضابط الامريكى شاليه لونج بك فى كتابه « مصر وأملاكها الضائعة »

« إن أقاليم مصر الجنوبية قد سرقت من مصر لأسباب فى غاية »
« الخطورة والأهمية ، ومصر لا تستطيع أن تتخلى عنها وانى لاعيدن »
« القول مكرراً بأن مصر . دون غيرها . هى التى يتوفر لديها ـ داخل »
« حدودها الخاصة ـ شعب يصلح صلاحية تامة لخدمة هذه الأقطار »
« الافريقية وإلى هذا الشعب ـ لا إلى البعثات الاجنبية ـ يجب أن »
« يتجه عاهل مصر وكل محب للجنس البشرى . »

« وإذا شاءت العناية الالهية أن تسعد اقاليم افريقيا الوسطى »
« بوسائل انسانية فان هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة الشعب »
« المصرى وعلى يده وحده يقوم الاصلاح . »

« حقا أن السودان لا يهدأ له قرار . ولكن هذا القلق ليس الا »
« شبحاً لا يلبث أن يختفى غداة جلاء الانكليز . . . فان بقاء الانكليز »
« وحده ـ فى مصر ـ يكفى لتغذية هذا القلق . »

هذه الحقيقة التاريخية التى نشرها امريكى محايد عقب الاحتلال الانكليزى لمصر والسودان — بفترة قصيرة — لاتزال تلفت النظر بعد مضى نصف قرن تقريبا كانما قد قيلت بالامس فقط .

ولاجل اتمام البحث واستكماله وتناوله من جميع اطرافه ، رايت أن أقدم الكلام عن الحكم المصرى المعروف « بالتركية السابقة » عن الكلام عن بواعث الثورة المهدية : لأننا اذا اغفلنا ذلك وتكلمنا عن موجبات الثورة ودوافعها . كما استقيناها من افواه أهل السودان — نكون كمن بدأ يشهد تمثيلية بعد أن فاته منها بعض فصولها الأولى

ولا بد لى فى الختام من ابداء كلمة شكر واجلال اهديهما إلى المؤرخ الطائر الصيت العلامة الدكتور محمد فؤاد شكرى أستاذ التاريخ بجامعة فؤاد الأول لتفضله على بمقدمة جعلتها قلادة فى جيد هذه الرسالة . وقد ضاعف جميله بما أسدى إلى فيها من الثناء . وما أبداه من الحفاوة برسالتى مما أملاه عليه جميل فضله وخالص حبه للسودان وأهله وأن مكانته السامية فى عالم التاريخ وشهرته الذائعة فى أندية الأدب لتزيد إلى ذلك الفضل جمالا وهذا العطف إجلالا .

وأقصى أمانى أن تتحقق أماله وأمالى فى مستقبل السودان وأن تتم الوحدة بين الشطرين للعمل على خلق جيل يشعر بالحياة الحرة متمشيا نحو المطمح الخطير مع النواميس الطبيعية على ادماج الوادى من الأسرة المتحضرة العالمية .

ومما يطيب لى أن اعترف بالارشادات القيمة التى لقيتها من أصدقائى الافاضل حضرات الأساتذة محمد على محمد وكيل الرى المصرى فى السودان ومحمد خليل مترجم تركى الديوان العالى وحسين منصور بمجمع فؤاد الأول للغة العربية كما أشكر لصديق محمود افندى عبد المنعم أمين مخازن الإمتحانات بوزارة المعارف لما بذله من جهد ومعونة صادقة فى تصحيح البروفات وإعدادها للطبع . جزاهم الله عنى خير الجزاء ؟

فبراير سنة ١٩٤٨ محمد الجابرى

الفصل الأول

التركية السابقة

« فتح السودان بناء على دعوة من أهله . ضم السودان لمصر واعتباره وحدة مشتركة . تقدم السودان نحو المدنية والحضارة والعمران . اشتراك الأهلين فى الحكم »

يسمى السودانيون المدة التى سبقت تدخل الانكليز وفيها الثورة المهدية ، عصر التركية السابقة ، وهو يبتدىء من عهد محمد على باشا الى عهد توفيق باشا

ولم تكن الأسباب التى أفضت فى جوهرها إلى ضم السودان لمصر طلب المنفعة أو مجرد التجارة أو السيطرة والشهرة أو الاستغلال بل كانت للروابط الطبيعية والحيوية والقومية والسياسية وروابط اللغة والدين والدم هم الأسباب التى دفعت محمد على باشا دفعا لفتح السودان وإلحاقه بأملاكه المصرية .

على أنه توجد إلى جانب ذلك أسباب أخرى هامة هى أن حكومة سنار كان يعمها الخلل والفوضى والفساد حين ذاك فأوعزت إلى الملك نمر أن يبطش بالملك بشير عمدة بلاد الجعليين فلما أدرك الأخير أن لا محيص من هلاكه ونزع الرياسة من أهل بيته فر إلى مصر عن طريق

عطمور أبوحمد وذلك فى أوائل ١٢٣٢ هجرية لاجئا . ذلك لأنه ليس للسودان مدخل ولا مخرج خلاف مصر فهى حصن السودان الذى يحتمى فيه المحتامون ويلجئون إليه هربا من طغيان الطغاة وعسف المتعسفين .

وكان محمد على باشا قد علم بقدوم الملك « الملك » بشير واد عقبد منذ حلوله فى الحدود المصرية فأوفد جماعة من حاشيته للقائه والترحيب به باسم الحكومة المصرية وكانت مقابلة باهرة شائقة طار لها بشير وأتباعه فرحاً فقام من بينهم رجل ينشد الأناشيد بلغة السودان المحكية وأنشد كلاما مدح فيه الملك بشير وهنأ مصر بقدومه فقال :

« ولاك مقهور ولاك منهور : وساكت بطرجيت شاكى
« وكم تلبا كبير منك يبيض ويكاكى
« سلام عليك يا مصرنا العزيزة
« الليلة مكنا جاكى . »

وتفسيرها أن المادح يقول للممدوح « أنك إلى حين خروجك من بلدك لم يصبك قهر من أحد ما ولا انتهرك أحد ولكنك حذرت من وقوع ذلك فحملتك شهامتك وعزة نفسك على أن تتوقى ضيما وربما استهدفت له نفسك الكريمة فى المستقبل وأنك طالما قهرت عدوك فى ميادين الحرب حتى أنه كان يستغيث من بأسك ويصيح كالدجاجة عندما تبيض وقد استقبلتك مصر بما يليق لمثلك من الإكرام والاجلال ولا غرو فانها البلد الأمين العزيز المشهور وإلى مليكها الملقب بالعزيز وتخطب منه انضوائها تحت لواء ملكه السعيد .

وقيل أن هذا الكلام فسر للمغفور له محمد على باشا بالتفسير الآنف الذكر فسر سرورا عظيما وغمر الوفد ولاسيما رئيسه بصنوف الحفاوة والتكريم .

وبعد مفاوضات طويلة لب عاهل مصر دعوة الأريحة وأدى رسالة الشهامة نحو أبناء الوادى من أهل الجنوب خير أداء ولما أن كان مبتغى محمد على الخيرى المحض المجرد من فساد النية والمنزه عن مطامع النفس كما أثبتته الحوادث قر رأيه على إنفاذ حملة مؤلفة من ٥٤٠٠ رجل من العساكر إلى السودان عن طريق دنقله بقيادة ولده الباسل الأمير إسماعيل باشا وألح عليه بأن لا يأتى أمرا بغير مشاورة رفيقه الملك بشير ودعقيد فسارت الحملة وما بلغت أرض النوبة حتى تلقاها السكان بالخضوع والطاعة وعندما بلغت دنقلة الجنوبية أبدت قبيلة الشايقية مقاومة ظاهرة انتهت بانتصار الجنود المصرية فى معركة كورتى ثم تابعت سيرها حتى بلغت الخرطوم وخضع لها الملك نمر عدو دليل الحملة الملك بشير .

وقد أكد معاصرو هذه الحوادث من أهل السودان ومن نقل عنهم أن محمد على باشا كان يكتب إلى ابنه الأمير ورفيقه الملك بشير كتبا واحدة وقد اقسم فى كتاب منها بأنه لايفضل أحدهما على الآخر وأنهما سواء عنده فى الحنان الابوى وختم كتابه بقوله « وهذا حكمى على جميع رعاياى المخلصين »

وبعد فتح مملكة الهمج بحذافيرها قام الدفتردار من أسوان بنحو

خمسة آلاف جندى إلى كردفان عن طريق دنقلة وكانت كردفان يومئذ تابعة لمملكة دارفور فأخضعها بعد إنتصاره على صاحب الشأن عليها المقدوم مسلم فى موقعة بارا وبعد أن أخضع إسماعيل فازغلى وأستتب له الأمر فى سنار شخص إلى مدينة شندى الواقعة شمال الخرطوم ونزل ضيفا على الملك نمر وكان عدوا للملك بشير كما أسلفنا ويتميز غيظا كلما رأى فوز عدوه وماوصل إليه من منزلته الرفيعة فى الحكومة فلما تقرر جمع الخراج وطلب الأمير الخراج فتظاهر بالقبول والموافقة ولكنه أضمر فى نفسه السوء وبعد أن جلس معه حتى انتصف الليل وانصرف الناس إلى مضاجعهم عمد النمر إلى إشعال النار فى القش الذى كان قد جمع حول المنزل فمات إسماعيل اختناقا ومات معه مائة مملوك وفر النمر إلى بلاد الحبشة حيث مات بها . أما اهله وذراريه فقد عفى عنهم محمد على باشا فى أخر الأمر فعادوا وسكنوا القضارف — وقد شق على محمد على باشا أن يعدم رعاياه كما عدم ولده وحرص الباشا على إنشاء الحكومة الأبوية الصالحة التى ترعى شئون السودانين وتنهض ببلادهم إلى مصاف الأمم المستحضرة . وآية ذلك تلك الاصلاحات العظيمة التى تمت على على أيد حكمدارية النظام فى القطر الشقيق ، فقد كان السودان قبل الحكم المصرى يتألف من عدة أقاليم مختلفة ومتشاحنة بعضها مع بعض تعيش بها قبائل وبدنات متباينة ولا يربط بينها رابط لكل منها «ملك» أى «ملك» يحكمها حكما أستبداديا فكانت الفوضى والحروب منتشرة فى السودان وتجرى مجرى العادة بين القبائل والعشائر

فمع أن القبائل كانت تتجاور أحيانا فإنها كانت تعيش وكل قبيلة منها في حدود « سبرها » أي في حدود عادتها التقليدية الموروثة : فهذه قبيلة تمارس الزراعة وأخرى تجاورها ولكنها لا تزال تجمع الطعام جمعا بما يروق لها من وسائل أخرى فلا تكلف نفسها مشقة الزراعة وهذه قبيلة تحرم بعض الطعام بينما تحله قبيلة أخرى تجاورها وهكذا . فمع أن الجميع يتجاورون ويختلطون ببعضهم بعضا إلا أنه كان لكل قبيلة « سبر » يجعلها تحب أو تكره ما لا يحبه أو يكرهه غيرها .

قامت حكومة محمد على بالقضاء على هذه النقائص وأقامة حكومة منظمة ربطت إجمالا بين الجميع في وسائل عيشها وطرائق حياتها . ثم قضت على تلك الفوضى الناشبة فأنشأت نظاما إداريا من الطراز الأول على غرار ما كانت عليه مصر حيث قسمت السودان إلى مديريات وجعلت على رأس كل مديرية مديرا وقسمت المديرية إلى مراكز على كل مركز مأمور من أهلها يستمد سلطة من مدير المديرية وقسمت المراكز إلى « حلال » أي قرى على رأس كل حلة شيخ كرئيس رسمي مسئول أمام الحكومة وكان لهذه الأنظمة أثر كبير وجاءت خير شاهد على ما تم من اصلاحات غرضها تقدم أهالي السودان ورفاهيتهم فأثارت في نفوسهم الميل إلى الحياة المستقرة وفضلا عن ذلك فقد ساعدت الحكومة الأهالي على بناء دورهم « بالجالوص » والطين والطوب والأخشاب بدل القش والغاب . ونمت الزراعة فسكن كل مواطن في مكان لا يبرحه وأصبحوا مزارعين لهم مساكن مستديمة بعد أن كانوا بدو يرحلون

من جهة إلى أخرى وكان يمثل الحكومة فى مختلف النواحى شيخ الحلة الذى يرجع إليه فى المنازعات والمشاكل المحلية .

وأحضرت الحكومة من مصر إخصائيين من العمال لتدريب الأهالى على الزراعة والصناعة . وأخذت زراعة القطن وحلجه ونسجه إلى دمور تنمو وتزدهر وزرعت النيل والكتان والنيلة وأسست مصانع ميكانيكية للنسيج وأحواضا وخوابى للصباغة واستخراج الأصباغ النباتية كما استخرج الألوان المعدنية «كالحرته» أى أكسيد الحديد لتثبيت الأصباغ وهى المعروفة فى مصر بالزاج الأخضر وما تزال آثار هذه المصانع باقية إلى الآن فى كسلا وسنار وكركوج وشندى والجضارف والبجراوية والكاملين ورفاع وغيرها . وكانت مصر تصدر سنويا ما يقرب من ثلثمائة ألف رطل نيلة للصباغة تصدر للخارج وذلك قبل اكتشاف الأنلين . فسارت البلاد قدما فى سبيل الحضارة والتقدم كما أنشأت الحكومة المصرية مدارس ومعاهد للتعليم وكان رفاعه بك أول ناظر للمدارس السودانية قبل أن يكون ناظرا أو وزيرا للمعارف المصرية .

ومما يدل على أن الحكم فى السودان كان حكما مصريا سودانيا عادلا من البداية باعتبار أن مصر والسودان قطر واحد ضمن نطاق مشترك حتى النهاية ساد فيه الأمن والاطمئنان وكثر الخير وعم الرخاء وتساوى الناس فى الحقوق حتى أن العامة صارت تترنم بالقول المأثور وتتغنى بعصر ميمون سعيد .

« الترك علمونا الحديث ولبسونا القميص »

« فتاوى ياقاضى السلاوى اللى عرب الشجر أصبح تركاوى »

وصار الحاكم التركى كما كان يسمونه يجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها بدون حرس يحرسه أو يحميه بل يستقبل أينما حل ضيفا كريما بالحفاوة والترحاب

° ° °

وفى سنة ١٨٥٧ سافر سعيد باشا لزيارة السودان وكانت زيارة موفقة ومباركة ذلك بأنه أمر بإجراء إصلاحات هامة منها أن تصبح الخرطوم ومديرية سنار والجزيرة مديرية واحدة على أن تكون كل مديرية منفصلة عن الأخرى وترجع فى أحكامها إلى والى مصر وهذا إلى جانب تخفيض ضريبة الأطيان الزراعية وضريبة السواقى ومنع الجند من جمع الضرائب وإناطة ذلك بمشايخ الحلال بعد الحصاد لا قبله وقد أمر سعيد باشا بعقد مجلس فى الخرطوم للنظر فى راحة الأهالى من بدو وحضر يتألف من جميع المديرين وأعيان البلاد ومشايخها هذا إلى أنه ألغى الضرائب المتأخرة وسن القوانين لجمع الضرائب وأمر باعطاء « سركيا » لكل مزارع بيده ليدفع ما جعل عليه من الضرائب على أقساط فى السنة وكلما دفع قسط قيد ذلك فى السركى الذى بيده كما قيد فى يومية الصراف وجعل من الأهالى مديرين ومأمورين ونظار أقسام ومعاونين بمرتبات شهرية من الحكومة وأمرهم بلبس الملابس « العثمانية »

مثلهم كمثل الحكام الأتراك لا فرق بينهم ولا تفاوت ثم أصدر عفوا شاملا عن خلفاء « الملك نمر » الذى أتهم من قبل فى قتل الأمير اسماعيل بعد أن تبين له ان المؤامرة التى حيكت لاغتيال الأمير لم تكن من صنع نمر وحده بل اشترك فى تدبيرها كذلك المماليك الذين غادروا مصر بعد مذابح القلعة وسافر اللاجئون إلى السودان . فكان من أثر هذه الإصلاحات أن حسنت الأحوال وازداد اطمئنان الأهالى للحكومة الأبوية الجديدة وثقتهم بها وحبهم لها . وكان مما زادهم يقينا فى حدبها عليهم ان حكومة القاهرة ظلت يقظة ساهرة تأخذ بالشدة كل من حدثته نفسه من الحكام والمأمورين بالخروج عن الطريق المستقيم والدليل على ذلك انه ما أن اتهم ممتاز باشا احد حكمدارى السودان فى عهد الخديوى إسماعيل بالظلم والرشوة حتى امرت حكومة القاهرة بسجنه فى سجن الخرطوم والتحقيق معه فيما نسب إليه بواسطة مجلس مشكل من السودانيين والمصريين ولم تشفع له خدماته النافعة فى السودان الشرقى قبل تبوئه منصب الحكمدارية ولولا ان عاجله الموت وهو فى سجنه لحوكم وحكم عليه جزاء وفاقا إذا ثبتت إدانته .

وكان لتلك الخطة الحكيمة التى سار عليها الولاه والخديويون المصريون من اجل تدريب السودانين على الاضطلاع بأعباء الحكومة فى بلادهم أبلغ الأثر فى تظافر رؤساء البلاد وزعمائها على تحقيق الإصلاح المنشود واسترعت هذه السياسة الرشيدة أنظار المعاصرين الأجانب فسموها سياسة اشتراك العناصر الوطنية فى الحكم والإدارة . وهى

السياسة التي نسميها نحن اليوم بسياسة سودنة الوظائف .

فكانت الرتب والنياشين تمنح لعمد البلاد ونظار الأقسام وكبار الموظفين السودانيين من مدنيين وعسكرين أسوة للمصريين بل ربما زاد عدد حامليها من السودانين على عددهم من أعيان الفلاحين المصريين نذكر منهم على سبيل المثال :—

بشير بك ودعقيد	عميد الجعليين
عبد القادر باشا ود الزين	شيخ مشايخ الخرطوم
إدريس بك ود عدلان	زعيم الفونج وأول معاون للحكمدارية
على بك البخيت	ناظر بنى عامر
احمد بك أبو جن	ناظر الحمدة
محمد بك موسى	ناظر الهدندوى
عبد القادو بك إيله	ناظر الحلانقه
محمد بك يس	ناظر كردفان
احمد بك دفع الله	عين من أعيان كردفان
عوض الكريم باشا أبو سن	ناظر الشكرية
احمد باشا أبو سن	ناظر نظار الشكرية والنواعة
كيكوم بك	(مك ، ملك ، قبيلة الشلك)
على بك أبو سن	من الأعيان
حسن بك أم كدوك	ناظر البرنو

على بك سالم	عمدة الكبابيش
محمد بك زايد	ناظر الضباينة
صالح بك شنقه	ناظر القلابات
أرباب بك واد دفع الله	من الأعيان
بشارى بك واد بكر	ناظر بنى هلبة
ابراهيم بك الورتينى	
على بك الخير	
محمد بك البلانى	من الأعيان وأهل الشورة
محمد باشا زيد	
صالح بك خليفة	
قناوى بك ابو عمورى	
ابرهيم بك الحجاز	وكيل مديرية بربر
محمد باشا إمام	الشهير بالجنير

وغيرهم ممن يعدون بالمئات وكان لهؤلاء وأمثالهم من العمد والنظار والزعماء وكبار الضباط والموظفين القول الفصل فى شئون بلادهم بل كان من الضباط والجنود السودانيين من اشترك اشتراكا فعليا فى الثورة العرابية فى مصر مما يقطع الشك بأنه لم يكن هناك تفرقة بين المصرى والسودانى ولا بين الأبيض والأسود من سكان وادى النيل ونذكر كذلك ممن شغلوا الوظائف الادارية من ابناء السودان :—

إدريس بك ابتر	كمديريين ، على التوالى ، لمديرية بحر الغزال
يوسف باشا الشلالى	
سليمان بك الزبير	
الشلالى باشا	كمديرين ، على التوالى ، لمديرية سنار ثم على مديرية كردفان
بساطى بك	
إلياس باشا أم برير	مديرا على كردفان
حسين باشا خليفة	مديرا لبربر
الطيب بك عبد الله	مديرا لفاشودة
محمد بك خالد ذقل	مديرا لدارة
السعيد بك حسين	كمديريين لمديرية دارفور
آدم بك عامر	
احمد باشا ابو سنه	كمديرين على التوالى لمديرية الخرطوم
محمد بك احمد	
أحمد بك جلاب	
محمد بك الجزولى	وكيلا لمديرية الخرطوم
احمد بك مكوار	وكيلا لمديرية سنار
عمر بك العمرانى	وكيلا لمديرية بربر
على بك عمارة ابو سن	مديرا للجمارك
محمد بك التلب	رئيس مجلس الاستئناف
محمد بك خوجلى	قاضى مديرية الخرطوم

عثمان بك حج حامد قاضى بخط الاستواء
الفقيه الشيخ الأمين العزيز شيخا للاسلام
ابو بكر بك الجرجوك من اهل الشورة

الخليفة واد ارباب
محمد بك عبد الرحمن واد البشير
عبد الرحمن باشا بان النقى
الفضل بك ابراهيم
} واعضاء مجلس الاستئناف العالى

ونذكر من الرجال العظام أصحاب السمعة الحميدة والآراء السديدة العوض بك المهدى (ولقب بالمرضى بعد ظهور محمد أحمد المهدى) وكان من الرجال العظام ومع أنه كان باشكاتبا لمديرية كسلا إلا أنه كان صاحب الكلمة النافذة والأمر المطاع فى شرق السودان وقد اختاره المهدى أمينا لبيت المال بعد سقوط الخرطوم فكان بمثابة الرأس المفكرة واليد المدبرة لشئون السودان مدة المهدى .

بـاطى بك المحسى باشكاتب مديرية الخرطوم
حسين أفندى الشريف معاون بربر
أحمد أفندى الفكى معاون عربان البدو (وقد اعتقل سنة ١٩١٤ وظل فى أسر الانكليز بقصر النيل فى القاهرة حتى اعتلت صحته وهزل جسمه نتيجه الأسر فأعادوه الانكليز إلى أم درمان سنة ١٩١٧ حيث استشهد إلى رحمة الله وكان أحمد الفكى مثالا للرجولة الكاملة والشجاعة فى الحق والكرم الحاتمى والوطنية الصادقة حلو الحديث لطيف

المعاشرة ذكى الفؤاد سريع البديهة ونذكر إلى جانب كل هؤلاء يا بكر بك واد السلطان وموسى بك واد يعقوب من أمراء القضارف والمغازة

أما الرجال العسكريون من أهل السودان الذين بلغوا أعلا الرتب والدرجات . فكانوا عديدين امتاز منهم نخبة فى تاريخ السودان الحديث أزجوا خدمات جليلة لأوطانهم منهم .

الماظ بك	آدم باشا	فرج الله باشا
وفرج الدين باشا	ويوسف الشلالى باشا	وصالح باشا الملك
والسعيد حسين باشا	وحسن ابراهيم باشا	ومحمد على حسنين باشا
وخشم الموس باشا	والنور بك محمد	وسرور بك بهجت
وعبد القادر باشا الفحل	وبخيت بك بتراكى	ومحمد بك السيد
وسليم بك مصرى	وعشرات سواهم	

وقصارى القول أن مصر خلقت السودان خلقا جديدا من جميع النواحى وفضلا عن ذلك فقد ثبت ثبوتا قاطعا لاشك فيه أن نفقاتى السودان كانت تربو على إيراداته طول عهد الحكم المصرى وأنه كان يحتاج إلى مبالغ طائلة لتغطية عجز الميزانية كل سنة . أما إحصاء ما أنفقته مصر إحصاء دقيقا من عهد محمد على باشا حتى قيام الثروة المصرية ـ من مال ورجال فى سبيل تعمير السودان وتقدمه ـ فأمر عسير الملتمس وإنما من الممكن أن يقال إجمالا أن لمصر وحدها يرجع الفضل فى إنشاء جميع المنشئات الفخمة والمبانى الضخمة التى ما يزال معظمها قائما إلى اليوم مثل

المصالح الأميرية والمستشفيات والمساجد والمدارس والشكنات وهذا عدا مد خطوط السكك الحديدية وتسيير الوابورات البخارية النيلية والإكثار من المشاريع العمرانية النافعة فى دنقلة وكسلا وغيرها وأن الترع الخضراء التى أنشأها سعيد باشا لتنهض دليلا على عناية الولاه والخديويين بعمار السودان وتحقيق الرفاهية لأهله . وامتد العمران إلى أصقاع السودان النائية عندما ضمت الحكومة مديرية بحر الغزال وجعلت الزبير باشا مديرا عليها وكان فى عهد الخديوى اسماعيل أن مدت أول سكة حديدية عرفها السودان تكلفت مبالغ جسيمة دفعتها مصر عن طيب خاطر على الرغم مما كانت تعانيه وقتذاك من ضائقة مالية شديدة . ووضع فى عهد الخديوى العظيم أضخم مشروع لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية لربط أطراف السودان من جهة وربط شطرى الوادى الشمالى والجنوبى بعضهما ببعض من جهة أخرى .

وفضلا عن ذلك فقد أنشأت ترسانة كبيرة لصنع البواخر والمراكب النيلية وتصليحها فبنت الترسانة هذه الوابرات البخارية الآتى اسماؤها :
تل حوين — الزبير — التركية — المنصورة — الفاشر — بوردس
الاسماعيلية — عباس — شبين — المسلمية — الحسنية — نيانزا
محمد على — السلطان — الخديوى — وذلك غير الصنادل والوابورات الصغيرة الأخرى .

مما تقدم نرى أن حكومة « التركيه السابقة » أو بالأحرى حكومة

الوحدة المشتركة استطاعت أن تسير بالسودان فى معارج الرقى والتقدم مر عليه زمن والسودان ينتقل من طور إلى طور ويخطو إلى الامام من حالة إلى حالة أفضل منها حتى وصل إلى درجة من الكمال يحسد عليا .

وقد يكون من الشائق أن نعرف شيئا عن عاصمة السودان فى السنوات السبعين فى القرن الماضى فى الوقت الذى بلغ فيه السودان أعلا مراتب التقدم والرقى فى عهد الخديوى اسماعيل وبدأت تتحرك أطماع الدول فى التغلغل فى قلب القارة الافريقية واستعمار هذه الأصقاع البعيدة. قال محمود طلعت فى كتابه (غرائب الزمان فى فتح السودان يصف وصوله إلى الخرطوم عند خروجه من مصر ملتحقا بخدمة الحكومة فى القطر الشقيق فى غضون عام سنة ١٨٧٥ : (فانتهينا إلى ساحل الخرطوم فى غروب يوم الأحد ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٢ (١١ ابريل سنة ١٨٧٥ وفى صبحية يوم الاثنين حضر إلينا معاون الضبطية وأرشدنا إلى محل نقلنا إليه متاعا ثم توجهنا إلى الحكمدارية وسلمنا إفادة المالية فأمرنا أنا ومن معى بالانتظار حتى يتم إعداد الجمال اللازمة لسفرنا عليها إلى كردفان ولا يخفى القارىء اللبيب أن طول المسافة قد أدهشنى جدا وأن الثلاثة أشهر التى استوليت على استحقاقها ستنقضى قبل أن أبلغ المركز الذى تعينت لأجله وفى هذه الحالة شعرت بألم الفراق الحقيقى فاستخرطت فى البكاء وسكبت الدمع مدرارا على فراق حبيبى وأهلى وبعد انصرافنا من الحكمدارية أخذنا نطوف الخرطوم التى هى عاصمة بلاد السودان ومحط رحال تجارتها فاذا هى بلدة حسنة الموقع جميلة المنظر تحييها أمواج البحرين الأزرق والأبيض غدوا ورواحا ويوجد بها من الجهة الشمالية المشرفة على البحر

الأزرق كثير من البساتين النضرة الشائقة والقصور الباذخة الشاهقة حتى لقد يعترى القادم على هذا المنظر البهج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة ما ينظره أو يرى أنه قادم على أجمل بلد وأعظمها تمدنا وحضارة ولا غرو فإن الخرطوم كانت المحل الأول لأشغال الحكومة المصرية فى أواسط إفريقية ومركز تجارة السودان ومحط رحال أعظم تجارة وعاصمة بلاد فسيحة الأرجاء واسعة الأطراف كثيرة الخيرات جزيلة البركات ترابها تبر وحصاها در ويسكن الخرطوم خلق كثير لا يقلون عن مائة ألف نسمة وبها أيضا كثير من الإفرنج لكن الجنس اليونانى أكثر من غيره لأن كل البقالين (البدالين) هناك يونانيو التبعة وما بقى منهم يشتغل بالتجارة غير أن الجنس الانكليزى وإن كان متظاهرا باشتغاله بالاتجار كسائر الأجناس إلا أن ذلك لم يكن إلا بصفة اسمية فقط أو هو وسيلة لبلوغ غاية كامنة فى نفوس أبناء التاميز والله أعلم. ولم يكن الغرض من كتابى هذا إلا شرح هذه الغاية كما سيتضح جليا لكل من اطلع عليه حيث يماط اللثام ويكشف النقاب ويظهر المعمى فتتضح الحقيقة لأبناء وادى النيل ويقفوا على كنه ماجره إليهم الإهمال والغفلة مما قضى على سودانهم بالفوضى وعلى إخوانهم الذين كانوا به لإدارة شئونه وتنظيم أحواله بالموت وعلى تجارتهم التى كانت رائجة سائدة فى تلك البلاد بالكساد وهى مصائب جنتها أيدينا علينا بما استهوتنا به شياطين الدسائس والفتن وأبالسة المكر والخداع وسترى أيها القارىء مفصلات هذه الحملات فى أبوابها بأحلى بيان وأوضح برهان ولنرجع الآن إلى ما كنا فى صدده

ويوجد فى الخرطوم كثير من الشوارع المنتظمه وعلى جانبها قصور مشيدة ومنازل جميلة تسر الخاطر وتقر الناظر وهذه الشوارع تكنس وترش صبحا وعصرا وهى لا تقل فى نظافتها عن شارع محمد على وشارع درب الجماميز بمحروسة مصر وبها ثلاث مدارس إحداهما للحكومة وهى كبيرة كاملة المعدات حسنة الترتيب والاثنتان الآخريان صغيرتان إحداهما للجزويت والأخرى للأقباط أما المكاتب الصغيرة (الكتاتيب) التى يدرس بها القرآن الشريف فهى مما لا يدخل تحت حصر وبها ايضا كثير من القهاوى منها ما هو على شاطىء النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها منتظمة ومبيضة تبييضا جميلا واراضيها مكسوة بألواح الخشب وقد علقت على حوائطها الصور الجميلة إلى غير ذلك من وسائل الزينة وبها جميع ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين من المأكولات والمشروب فضلا عن أنواع الألعاب والملاهى كالبليارد والشطرنج والنرد وغيرها مما لا يقل عن مافى مجتمعات مصر العمومية وبالجملة فالخرطوم مدينة قد توفرت فيها اسباب المدنية وكملت وسائل العمران وسكانها على جانب عظيم من الرقة ودماثة الاخلاق والكرم والشجاعة فأقمنا بها خمسة وعشرين يوما اخذنا فيها حظنا من الراحة واتممنا لوازم السفر ثم انتقلنا من الخرطوم إلى امدرمان وهى واقعة على الشاطىء الغربى للنيل الأبيض فوجدناها عبارة عن مكتب تلغراف وبعض اماكن خالية من السكان وقد خصصت هذه البقعة لإقامة الواردين من داخل السودان الغربى والمترددين عليه وقد خيل لنا ان جميع عساكر مصر قد نقلت إلى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية

وعساكر الباشبوزق فأقمنا هناك ثلاثة ايام حتى جاءتنا الإبل وقد أيقنا عند رؤيتها اننا هالكون لا محالة لبشاعة منظرها ولانها متناهية فى الطول والارتفاع شديدة السواد لم يسبق لنا من قبل رؤية ما يشا كلها وفى يوم الاثنين ٥ ربيع الثانى سنة ٩٢ (١٠ مايو سنة ١٨٧٥ علونا تلك الإبل وازمعنا السير) .

وهاك اقتباسان من أقوال سلاطين باشا نقلا عن كتابه (السيف والنار فى السودان) وسلاطين باشا — كما هو معلوم كان حاكما لدارفور مدة التركية السابقة وأسير المهدية ومفتش عام لحكومة السودان من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩١٤ ويعتبر حجة ومن أعرف الناس بأحوال السودان :

« لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على »
« الأوربيين ولم نكن نحن الغربيين نتضجر من أمثال تلك المظالم فما هى »
« إلا عشر سنوات منذ وقع السودان فى قبضة المهديين حتى شاهدنا »
« المظالم تترى والعسف يتوالى وإنه لمن الحق أن أصرح بأن السودان »
« ظل أكثر من سبعين سنة — منذ ادخله محمد على تحت حكم مصر والمصريين »
فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع ومستعدا لقبول كل جديد »
« تأتى به المدنية ويدعو إليه العمران — تحت حكم المصريين انتشر »
« التجار المصريون والأجانب على السواء فى مدن السودان الرئيسية وفى »
« الخرطوم ذاتها كان للدول الأوربيه العظمى ممثلون محترمون من الجميع »
« وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوربية متمتعين بحق الدخول إلى »

« السودان والخروج منه وهم فى كل من تينك الحالتين على أتم مايتمنون »
« من أمن وهدوء وسلم وإلى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان »
« وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة »
« إن أعظم ماتمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام »
« كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى إليه ضميره فكنت »
« ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين فى أماكن قريبة يقصدها »
« أبناؤها بمطلق الحرية وفى هدوء واطمئنان كما كنت ترى مدارس »
« المسحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لافرق فى ذلك بين »
« الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة . كانت المناطق السودانية »
« مقطونة بقبائل مختلفة وكان العداء فى كثير من الأحيان شديدا بين »
« رجال القبائل ولكن حزم الحكومة المصرية أدى إلى نشر السلم بين »
« السودانيين على وجه عام سواء أكانوا فى ذلك راضين أم مرغمين »

وسخط سلاطين باشا سخطا عظيما على حكومة المهدية ثم استطرد فقال :—

« إن أول مايتبادر إلى ذهن من يفكر فى شئون السودان بعد قيام حكم »
« المهديين هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التى وجدت فى سنى حكم »
« المصريين منذ حكم محمد على فليس من شك فى أن تغيير الحال وحلول »
« الفوضى محل النظام يولدان فى العقل شعورا صادقا بالقضاء على كل أثر »
« ظهر للمدنية فى السودان قبل المهديين وهذا ماحدث بالفعل فقد اندثرت »

« معالم المدنية رغم طراوتها وحدثها والسبب الرئيسى فى اندثارها هو »
« انتقال الحكم إلى أولئك المستبدين الجهلة بل أذهب إلى أكثر من »
« ذلك فأقول إن سبب ضياع المدنية راجع إلى ظهور نفوذ أولئك »
« الهمجيين الذين أسسوا على إنقاص الحكومة السودانية المصرية »
« السياسية نظاما جديدا كان إلى حد ما متبعا خطوات النظام الماضى »
« فى العرض ولكنه خالفه فى الجوهر فبدلا من الحق والعدالة والأخلاق »
« فى حكومة العهد المصرى تجد الظلم والباطل البربرى والتجرد من نظم »
« الأخلاق فى حكومة المهديين وأتباعهم . وأنه لمن الواجب علىّ أن أقرر »
« للقراء غير مدفوع فى ذلك بنزعة الثأر لنفسى بما قاست من ويلات ولكنى »
« مدفوع بوازع الضمير رغبة فى تقرير الحقيقة كلها - بأنى لن أستطيع »
« ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى »
« الدرك الأسفل من الهمجية غير السودان »

واستطرد سلاطين باشا فى ذكر فظائع المهدية ثم قال : -

« إن الذين يرغبون فى دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل »
« أى اعتبار آخر أن يدركوا بأن السودان اليوم ليس هو ذلك السودان »
« فى أيام اسماعيل باشا عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة »
« المصرية فى الوقت الذى كانت فيه البقاع والأمم المختلفة المجاورة »
« للنفوذ المصرى أما فى درك الهمجية وأما عابدة للاوثان حيث لم »
« يستطع الأوربى ضمان النجاة لنفسه إذا اجتاز أحداها علاوة على أن »

« جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة »
« من القارة الأوربية معروفة لدى الأمم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا »
« فى غير القليل النادر – كان السودان إذن زهرة تلك البقاع والمتميز عن »
« جميع ما جاوره بماله من مدنية ونهوض وكان ذلك كله فى العهد »
« المصرى ولكنى أقول كما قلت قبلا . أن الهمجية تطرقت إلى جوانبه »
« عندما جاء عهد المهديين – كان السودان على مقدار مذكور من المدنية »
« والنهوض فأصبح منكودا متخبطا فى طرقات الجهالة والظلم بعد أن »
« ألقيت مقاليد الحكم فيه إلى قوة همجية وحشيه تكره التقدم والنظام »
« وتمجد الكذب والرياء »

ونحن أمام ذلك كله لانكون مبالغين إذا قلنا أن السودان عرف مدة الحكم المصرى عصرا فريدا من عصور العظمة والازدهار ولم تقصر نهضة السودان على النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فحسب بل شملت هذه النهضة الناحية الفكرية كذلك — فكان عهد « التركيه السابقة » فتحا جديداً فى تاريخ الفكر السودانى إذ استيقظ الفكر السودانى فى ذلك العهد من سباته فتحرر من كابوس الخيالات الأولى التى تشبه هذيان المرضى وأوهام الأطفال ونفض عن نفسه ما كان يساوره من فزع وهلع إزاء مشاهد الطبيعة وأحداثها .

فبفضل انتشار التعليم وإنشاء المدارس ودراسة العلوم الفقهية والرياضية وبفضل تعيين الأهليين فى وظائف الحكومة الإدارية والكتابية

وبفضل إرسال البعثات للخارج صارت تتسابق الناس إلى دور التعليم والانتساب إلى العلماء والفقهاء. ولم يقف الحال عند هذا الحد بل أنشأت الحكومة دورا للهندسة ولتعليم الميكانيكا والكهرباء لسد حاجة الترسانة المارذكرها ومدارس للتلغراف فتحقق للسودانى عن وعى وشعور أنه هو المسيطر على مشاهد الكون كله ، بل عرف أن له عينا ليرى ، وأذنا ليسمع ، ويدا ليعمل ، وعقلا ليتدبر ، فصار الفكر يتعاون مع اليد فى إخراج التحف المعدنية الدقيقة التى نراها اليوم فى سوق أم درمان وبفضل وفرة الخيوط والمنسوجات القطنية والحريرية المحلية حيكت الأثواب المزخرفة بمختلف الألوان فى السودان مثل « الفركة » « والسرة » « والبورصة » « والقرمصيص » التى يستوردها السودان فى الوقت الحاضر من الهند ونقادة ودراو والقاهرة بعد أن كانت تصنع محليا بيد أهالى السودان — وعلى الرغم من هذا السجل الحافل فاننا لم نذكر فى الحقيقة حسنات الحكم المصرى بأكملها بل تركنا هذا السجل الحافل على ماأخرج من رجال ميامين انحدر من أصلابهم أبناء الجيل الحاضر دون أن نعطيه مايستحقة من طلاء خلاب بل اقتصرنا على ترديد ما كنا نسمعه من أفواه أبنائه أنفسهم وهم رجال عزاز علينا من أهل السودان مازالوا يذكرون عن أجدادهم وآبائهم ماعرفه هؤلاء عن ذلك العهد المجيد الغابر وينقلون عنهم حديثا هو الحق فيما يعتقدونه من كل هذه الأمور .

ومع ذلك فهناك سؤال لامندوحه عن محاولة الاجابة عنه ، سؤال

جد خطير مازال يجول بخواطرنا وتشغل معرفة الحق فيه أذهاننا جميعا. إذ انه والحال ماذكرنا فما الأسباب إذن التى اوغرت الصدور ضد « التركيه السابقة » وضد حكامها ؟ وما بواعث هذا التحول الطارىء ؟ وما موجباته وبمعنى آخر ماذا كانت مسببات تلك الثورة المشئومة التى قضت على هذه الحضارة والقت بالسودان فى احضان الفوضى والدمار ؟ إن الاجابة على هذا السؤال — كما يرى كثيرون ممن عاصروا الحوادث فى الثلث الأخيرة من القرن الماضى — وكما يعتقد اهل السودان انفسهم الذين شهدوا حودات الماضى وما زال ابناؤهم واحفادهم يرددون ماسمعوه منهم حتى هذا الوقت — نقول ان الاجابة على هذا السؤال تتلخص فى جمله واحده هى « تدخل الانكليز »

الفصل الثانى

التدخل الانكليزى

« الرواد الاجانب واكتشافاتهم . تدخل الانكليز بحجة ابطال الرق خلق الفتن واثارة الشعور استئثار الانكليز بالادارة »

لعل اكثر ما كتبه الباحثون فى تاريخ السودان خلال الجيل الماضى لم يقصد الى اظهار شىء عن حقيقة ثورة المهدى لان المؤرخين من ابناء ذلك الجيل كانو قد شبوا ونشئوا بين طائفة من الكتب والاسفار التى حجبت - عن عمد - البواعث الحقيقية للثورة . وابرزت اسبابا مزيفة ليس الغرض من ذكرها سوى تشويه سمعة المصريين وبلبلة أفكار السودانيين واقناعهم بالزهد فى مصر حتى يطيب لهم طلب الانفصال - طائعين مختارين - بحجة الاستقلال تارة ، وتقرير المصير تارة اخرى حتى يسهل بسحر هذه الامانى ادخال السودان ضمن الدائرة المرنة ويتم ما تصبو اليه انكلترا من زمن بعيد . لأننا إذا استشهدنا بما حدث من وقائع فى جميع ادوار الحكم المصرى ابتداء من وقت افتتاح السودان الى قيام المهدية لتبين لنا أن هذا الحكم كان حكما عادلا رشيدا يستند الى مبدأ ظاهر - هو اعتبار مصر والسودان قطرا واحدا يضمه

سياج واحد تحت سيادة واحدة . وقد يكون ما ذكرناه فى الفصل السابق كافيا لبيان هذه الحقيقة .

والآن دعنى احدثك عن موجبات الثورة التى هى أعجب ما حملته بطون الايام فقو قلبك واستمع لقصة لم تستوعبها الكتب ولم تسجلها الاسفار المطولة التى بين ايدينا :

بينما يعيش السودان فى يسر ورخاء والامن مستتبا والعدل باسطاً جناحيه ، والبلاد راتعة فى رياض السلام والوئام ، والعناصر المختلفة والطوائف المتنوعة تتغنى بعهد ميمون سعيد ، اذ حضر فى عام ١٨٦٣ صموائيل بيكر زائرا مستكشفا . فذهب الى اعالى النيل ومعه زوجته . فتجول الاثنان فى تلك الاصقاع النائية وقضيا هناك اربعة اعوام وهما ينتقلان من جهة الى أخرى مع عرب السودان « الجلابة » وعند عودة صموائيل بيكر الى بلاده الف كتابا قرر فيه أن السودان اكثر أمنا من حديقة هيد بارك بعد الظلام : ولكنه حمل حملة قاسية على عرب السودان لسبب انغماسهم فى أعمال « النخاسة » وتجارة الرقيق وحمل على الاسترقاق بعنف وشدة قائلا أن السودان غارق فى الفساد والرشوة . وان مصر تعطف كل العطف على الاسترقاق . وإنه لم ير قط موظفا من موظفى الحكومة يتهاون فى اندفاعه عن النخاسة على اعتبار أنها من الزم ما لا يستطيع الاستغناء عنه بحال من الأحوال . وان ما تبديه مصر من مظاهر عدم الرضاء عن الاسترقاق انما هو تكلف مصطنع يراد به خداع الدول الأوربية . ثم حمل حملة قوية حادة على أهالى السودان العرب

فوصفهم « بقانصى العبيد وقاتلى الفيلة » ثم قال لولا تجارة النيل الأبيض ما قامت لمدينة الخرطوم قائمة وهذه التجارة قوامها الخطف والقتل: خطف الرقيق وقتل الفيلة . وإما تجار النيل الأبيض ففريقان يملك أحدهما المال ، فى حين أن الفريق الآخر مجموعة من الآفاكين الذين لا يملكون درهما . وكلا الفريقين يسير على طريقة واحدة ، ذلك بان رجلا لا مال له مثلا يريد تجهيز غزوة فيعمد الى اقتراض قدر من المال بفائدة ١٠٠ ٪ لتنفيذ مشروعه ويتفق مع الدائن على ايفاء الدين باعطائه سن فيل بنصف القيمة التى قد يشترى بها فى السوق وما أن يحصل على المال الذى يلزمه حتى يستأجر عدة مراكب وطائفة من الرجال العرب ثم يشترى بنادق ومقادير كبيرة من الذخائر والخرز المصنوع من الزجاج ببضع مئات من الجنيهات ثم يدفع لرجاله بعد اعداد الحملة اجرا مقدما لمدة خمسة أشهر بواقع تسعة شلنات لكل منهم شهريا . وبعد أن يمنحهم فى الوقت نفسه ستة عشر شلنا فى الشهر لاية مدة تزيد على الخمسة اشهر المذكورة . ثم يستأنف صموائيل بيكر وصفه فيقول :

« وكان قانصوا العبيد والنخاسون الذين يتوغلون فى البلاد ويعملون فرقا فرقا فى خدمة طائفة من التجار - تجار الخرطوم - حتى أن بعض هؤلاء التجار كان يضم الى خدمته نحو خمسماية والفين من العرب المرتزقة يقومون بمهام الخطف واللصوصية فى اواسط افريقيا . وكان لكل تاجر منطقة نفوذ يعمل فيها ويرسل اليها جنوده وأعوانه . وتنقسم المنطقة

الى محطات فى كل محطة نحو ثلثمائة رجل . وعلى هذا النحو كانت العصابات المسلحة تحتل بقاعا واسعة جدا . وكان رجال تلك العصابات يعقدون المحالفات مع بعض الأهالى لمهاجمة القرى والقبائل المجاورة لخطف النساء والاولاد والمواشى والأغنام . »

ثم يسترسل فيقول :

« وليس فى الامكان رفع قارة افريقيا الى مستوى يقرب من المدنية ما لم يقض على النخاسة قضاء لا رحمة فيه ولا هوادة ولا يستطاع فتح بلاد لنشر الدين المسيحى لأنها موصدة . وليس ثمة ما هو اسهل من القضاء على النخاسة لو أن الدول المسيحية الاوروباوية ارادت ذلك بصفة جدية فاذا اغمضت الدول عيونها وتهاونت استمرت اعمال النخاسة على حالها وظلت القارة السوداء قارة اسلامية متعصبة بل ومتعطشة لسفك الدماء . »

ثم نجم على اثر نشاط صموائيل بيكر أن ثارت ثائرة جمعية مكافحة الرق فى انكلترا وثار الرأى العام الانكليزى واضطرت الحكومة الانكليزية الى التدخل لدى الخديوى اسماعيل حتى يمضى فى تلك الطريق التى كان الخديوى قد رسمها منذ عام ١٨٦٥ بعد أمعان وتفكير للقضاء شيئا فشيئا على النخاسة فى بلاد السودان وظهر اهتمام الانكليز وتحمسهم للقضاء سريعا بصرامة وشدة متزايدة وبكل عجلة على تجار الرقيق عندما صار ولى عهد دولتهم (الملك ادوارد السابع فيما بعد) يلح الحاحا

متواصلا ظاهرا على الخديوى حتى بعين السير صموائيل بيكر حاكما مطلقا على مديرية خط الاستواء. فاجاب الخديوى رغبته تطمينا لخواطر الانكليز واظنها لصدق عزمه فى القضاء على الرق والنخاسة فعين صموائيل بيكر بفرمان لمدة اربعة سنوات مأمورا على خط الاستواء .

ولكن بيكر سرعان ما سلك فى مهمته مسلك الحكام الباطشين فأخذ يجند الجند يقودهم — على حد قوله — من نصر إلى نصر ومن موقعة إلى أخرى فكان شأنه شأن القائد المظفر فى ميادين القتال ودعاه تهوره إلى قيادة حمله صليبية كبيرة لا ضد النخاسين فحسب بل وضد الزنوج الوادعين من أهل تلك البلاد فكان قوام قوته حوالى سبعماية وألف من الجنود المشاة والفرسان والمدفعيين. وأما هذه الحملة فقد كلفت مصر ما يقرب من المليون جنيه خلاف المرتبات العادية وكان السير صموئيل بيكر يتقاضى عشرة آلاف جنيه مرتبا سنويا . وهكذا يتبدل حال السير صموائيل بيكر السائح العادى فيصبح ذلك الحاكم الذى لا ترد له كلمة ولا يحد شىء من سلطانه ولا يسأل عما يفعل فأخذت بعقله سلطة الفرد وغرربه نزق الاستبداد فامعن فى قتل (الجلابة) ومصادرة أرزاقهم ومطاردتهم أينما وجدوا وحيث حلوا وذاعت أخبار القتل والتعذيب والمطاردة والمصادرة فى أنحاء المناطق القريبة . فكانت تقام المناحات ويشتد العويل والبكاء على من قتلوا من عرب الجلابة واشترك الأهلون فى الحزن والأسى لأنهم جميعا (أولاد عمومة) كانت تربطهم بالجلابه وحدة الغاية والقصد وخصائص العادات واللغة والدين فضلا عن صلات الرحم والقرابة ورواح

الناس يعتقدون أن الخديوى فى (تعيينه نصرانيا لحكم المسلمين) ومن مسعاه لأبطال الرق قد أصاب الدين فى الصميم وزلزل قواعده . وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد اعتاد أهل السودان — منذ الأزل — أن يعتبروا الرق من صميم الدين وكل محاولة لتغيير ما أبقوه وما أمر به الدين الحنيف كفر وزندقة وافتراء على الله .

اشتد بأس صموائيل بيكر وأعلن حرباً صليبية لا رحمة فيها ولا هواده على الجلابة كما قلنا وصار يقبض على كل عربى لسبب أو لغير سبب ويجرده مما يملك من متاع أو تجارة ثم يرسله مكبلا فى السلاسل والاغلال إلى الخرطوم بينما هو مرتبط مع تجار بالتزامات فتضيع تجارته وترهقه الديون وأما من كان ينجو من الموت يبادر بمبارحه خط الاستواء — خوف العقاب فانه يقبض عليه كذلك فى بلده ويرمى به فى السجون . فمزقت هذه الفعال أحشاء البلاد كل ممزق وضاقت بالناس السبل والمسالك

ولكن هذه السنوات الأربع سرعان ما انقضت بويلاتها وشرورها . وعندما غادر بيكر خط الاستواء تنفس الاهلون الصعداء .

يصف صاحب (السودان المصرى والانكليز) صموائيل بيكر فيقول:

« وكان السير صموائيل بيكر رجلا قاسى القلب غليظ الكبد اشتهر »
« بسفك الدماء وازهاق الأرواح ويقال أنه قتل يوما عشرة جنود لذنوب »
« خفيفة أكبرها أن أحدهم مر بخيمته فعثرت رجله بأحد اطنابها فخرج »
« إليه وأطلق عليه الرصاص من غدراته وكان إذا سار مع جنود لاكتشاف »
« جهة كلفهم بأن يحملوه على أعناقهم فاذا أبدى أحدهم ضعفا قتله فى »

« الحال فابغضه الجنود وبسبب هذه الفعال هموا بقتله مرارا عديدة فلم « يعصمه منهم غير ضباطهم المصريون »

وفى السنوات القليلة التالية استطاع الزبير رحمه أن يجمع فلول الجلابه الدين طاردهم بيكر وألف منهم جيشا فتح به بحر الغزال ثم سلطنة دارفور بالاشتراك مع اسماعيل أيوب باشا حكمدار السودان وقدمهما إلى الخديوى اسماعيل عربونا على ولاء السودان واخلاصه .

بيد أن هذه الفتوح الجديدة ما لبثت أن اثارت ثائرة الأنكليز وسخطهم فالزموا الخديوى على نحو ما يعتقد أهل السودان بأن يستدعى الزبير باشا إلى مصر .. وما أن وصل الزبير إلى القاهرة حتى قامت دعاية شديدة ضده فى أوربا روج لها مؤتمر الدول الذى انعقد وقتذاك فى (بركسل) لمكافحة الرق ثم جمعية الغاء الاسترقاق الانكليزية فى لندن ، وترتب على ذلك أن حجز الزبير فى مصر وحرم من العودة إلى السودان وذلك فى سنة ١٨٧٤ .

ثم انتهزت انكلترا هذه الفرصة فالحت بضرورة تعين انكليزى آخر خلف للسير صموائيل بيكر ويعتقد أهل السودان أن الانكليز قد اختارو الملء هذا المنصب شارل جورج غردون بالذات [1] فاجبت

---

(١) قبل أن ينتدب غردون للخدمة فى السودان كان منتدبا بالخدمة فى الصين لمحاربة زعيم صوفى اسمه (هونج توشونج) كان يدعى بان الله أجلسه على كرسيه فى السماء وكلفه بأن يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا فانتخب الانكليز غردون لمحاربة هذا الصوفى فسلك غردون مسلكا وحشيا هداما فاحرق المدن بمن فيها وهى آمنة وأخذ البرىء بذنب المذنب فقررت الحكومة الانكليزية استدعاؤه من الصين .

رغبتهم وتعين من ثم غردون حاكما عاما على مديرية خط الاستواء فبعث هذا التعين الجديد القلق والفزع فى القلوب وزاد من ثورة غضب السودانيين حدوث ذلك التعين فى وقت كان الزبير ما يزال فيه مبعدا عن بلاده فى مصر فى شبه منفى فنال ذلك من هيبة المصريين . . . أما غردون فقد جرى بحجة إتمام القضاء على تجارة الرقيق على سنن سلفه من مصادرة ، وقتل ، ومطاردة وتنكيل (بالجلابة) وكانت فترة من الزمن لم يقف الدماء فيها برهة واحدة فاستحكم الضيق من جراء أساليب المظالم وأفانين المغارم واستولى اليأس على النفوس وأصبح الأهليون فى حالة يرثى لها .ذل وهوان ،وخسف وحرمان . . . ثم زادت حيرة أهل البلاد عند ما عين غردون بعد ذلك حاكما عاما على السودان سنة ١٧٧٨ بالحاح كذلك على نحو مايعتقد السودانيون من ولى عهد الانكليز فأصيبت البلاد بصدمة عنيفة وعظمت الكارثة عند ما عزل غردون عدداً كبيراً من الموظفين السودانيين والمصريين واستبدل بهم جماعة من الأوربيين . فعين فى يولية سنة ١٨٧٨ أى خلال شهر واحد فقط ١٤ موظفاً أوربيا نذكر منهم : جسى باشا . سلاطين باشا ، فردريك بك . لبتون بك .واراليك بك . ومسنجر باشا . وتشرميد باشا . ومارنو بك . وميسون بك . وميداليه بك . وجونفرت روس بك . وأمين باشا وجوست وسواهم وقد اشتط هؤلاء فى مطاردة الجلابه ومصادرة الرقيق حتى أصبح السودان كما يقول أهله (عربه بلا عجل او طير بلا ريش أو قفل بلا مفتاح) لأن

الأرض لا تنبت بنفسها بل لابد من استخدام الأيدى العاملة فى ذلك .
والمواشى لا ترعى بلا راع والرعاة هم الرقيق الذى تصادره الحكومة
وعلى ذلك فقد كثر تفكير الناس فى هذه الأوضاع الجديدة واحتدمت
غيرتهم على الدين الاسلامى وكان من السهل أن تثبت فى اذهانهم فكرة
أن النصارى يتآمرُون على الدين الحنيف وأن الساعة باتت قريبة وأن
الاستشهاد فى سبيل الله لهو عين البقاء والخلود .

الباب الثالث

مطاردة الجلابين

قتل سليمان بن الزبير باشا وقتل أعمامه غدراً
بعد التسليم لجسي باشا. فرار رابح الزبير الى الغرب.
نشاط غردون باشا. أعمال غردون التعسفية.
دور المرأة فى الثورة واستنهاض الرجال للاخذ بالثأر

أما غردون فقد صار لايهجع ولا يستكين سافر إلى دارفور ووجد الجلابين من أمثال الجعليين والدناقلة والشايقية منتشرين فى أنحاء دارفور بعد أن فتحها إسماعيل أيوب باشا بمعاونة الزبير ومهد لهم الزبير رحمه سبل العيش بها فعمد غردون إلى طردهم من دارفور وأمر مشايخ عرب الغرب والفور بالقبض عليهم والأخذ بالثأر أو تجريدهم وإرسالهم بالقوة إلى دارة وطويشة فى بلاد الفور بعد تاريخ معين وكانت حجته فى ذلك انحيازهم إلى جانب الزبير وخروجهم على طاعة الحكومة وخصوصاً بعد احتجاز الزبير فى مصر فانتهز عرب الغرب والفــور هذه الفرصة وأخذوا ينهبون (الجلابة) بل التجار الوادعين المسالمين الذين عاشوا بينهم زمنا طويلا والذين لم يكن لهم صلات ما بالزبير وأتباعه فأهدرت

دماؤهم وضاعت متاجرهم وسلبت أموالهم . نعم ذاعت أوامر الحاكم العام غردون بين عرب البدو فى الغرب وبين رجال الفور لحمل هؤلاء حملة شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة على (ناس بحر) أى الجلابين فأخذوا منهم تجارتهم وكل ما يملكون من نساء وأطفال وصاروا يسوقونهم بالألوف كالبهائم وهم عراة وبعد أن جردوهم مما يملكون ساقوهم إلى طويشة وداره وأم شنغة والأبيض واعتبر هذا عقابا عظيما لهم على مساعدتهم الزبير باشا وابنه سليمان وسائر الجلابين .

وكان كثيرون من هؤلاء التجار قد أقاموا بين سكان دارفور سنوات عديدة ولهم زوجات وأولاد وسرارى وأملاك واسعة وقعت كلها الآن فى قبضة العرب الفور وترتب على هذا العمل نتائج بعيدة ذلك أن معظم هؤلاء الجلابين كانوا من عزاز القبائل ولهم أقارب وأصهار وعصبيات فى وادى النيل وأصدقاء وأحباب عديدين آلمتهم أوامر غردون وأصبحوا يسخطون عليه وعلى الحكومة .

وعلاوة على ذلك فان غردون لم يلبث أن جهز تجريده تحت قيادة جسى باشا لمحاربة سليمان بن الزبير رحمه وبعد عدة مواقع كان النصر فيها حليف سليمان فكاتبه والده الزبير باشا وأمره بالتسليم ففعل ولكن جسى سرعان ماغدر به فقتله هو وأعمامه وتشتت جيش سليمان بين القبائل والعشائر واعتصمت فلوله فى الجبال .

وكان يتولى قيادة الجيش الذى تركه الزبير لإبنه سليمان عدة رؤساء

فلما أتاهم كتاب الزبير باشا من مصر انقسم الجيش إلى حزبين حزب مال إلى التسليم ورئيسه سليمان وحزب عارض فى ذلك وكان برأسه رابح وهو من معاتيق الزبير .

فى صباح ١٤ يولية سنة ١٨٧٩ أتى سليمان إلى جسى مستسلما ومعه سبعمائة رجل فى ثمانية من أقاربه وهم حسن ولد زقل وأبو بكر منصور وموسى الحاج وأحمد ادريس وابراهيم واد حسن وكلهم من قبيلة الجيعاب والأرباب محمد واد دياب من قبيلة السعداب وعبد القادر واد الإمام وسليمان واد محمد والقائد برنج الأسود من معاتيق الزبير وفى ثانى يوم التسليم دعاهم جسى باشا لشرب القهوة وكان قد أوعز إلى بعض الجند فبعد دخولهم فى الخيمة أحاط هؤلاء بالخيمة ثم خرج جسى منها فدخل بعضهم وأوثقوا سليمانا وأقاربه وجعلوهم صفاً واحدا خارج الخيمة ثم وقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص فانكبوا على وجوههم قتلى ولما علم قناوى بك أبو عمورى بمكانهم ذهب إلى هناك فكفنهم وحفر لهم حفرة ودفنهم فيها بعد أن ظلوا فى العراء مدة طويلة .

أما الرءوس الذين لم يسلموا عدا رابح فهم الريس أبو القاسم من قبيلة المجاذيب وموسى جلى وإدريس سلطان ومحمد فضل الله وكلهم من قبيلة الجيعاب وعبد البيّن الأسود من معاتيق الزبير وأخذ كل منهم رجاله وتفرقوا بين عرب البادية . ولما ذاع بين العرب خبر قتل سليمان وأعمامه وأن غردون اباح أهدار دمائهم قبض هؤلاء عليهم وساقوهم إلى الفاشر

وقد أمر ميسداليه بك مدير الفاشر بقتلهم رميا بالرصاص عملا بأمر جمى باشا .

أما رابح فقد أفلت من الموت هو ومن انضم إليه وكانوا نحو ألف رجل مسلحين بالبنادق قادهم رابح إلى جهة الغرب فأخذوا يجوبون البلدان إلى أن وصل (برنو) ففتحها رابح وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته (ديكوه) فى جنوب بحيرة (تشاد) وقبل وصوله إلى بلاد برنو كان مهدى السودان محمد أحمد قد قام بنشر دعوته وبذل محمد أحمد هو وخليفته من بعده عبد الله التعايشى كل جهد فى استمالة رابح وإرجاعه بجيشه لنصرة الدين ولكن رابحا لم يجب دعوتهما بل أرسل يقول (كيف نحارب أفندينا ونحن من رعيته وقد فتحنا بحر الغزال ودارفور من أجله) وأسس رابح الزبير ملكا عظيما واشتهر بالعدل والصرامة وظل ملكه قائما إلى أن دخلت برنو فى نطاق السيطرة الفرنسية فجرد الفرنسيون عليه جيشاً كبيراً فحاربهم رابح وظهر عليهم فى عدة مواقع ولكنهم ما لبثوا حتى جردوا عليه حملة قوامها سبعمائة وألف من الجند المسلحين بالبنادق وخمسمائة وألف من جنود باقرمى وأربعة مدافع بقيادة الكونت لامى وكان مع رابح خمسمائة مقاتل وستمائة فارس وثلاثة مدافع فقط . فلما التقى الجيشان بالقرب من بحيرة تشاد وذلك فى ٢١ ابريل سنة ١٩٠٠ اقتتل الفريقان قتالا شديداً كان النصر فيه حليف الفرنسيين فقتل رابح وتشتت جيشه وخسر الفرنسيون الكونت لامى ولكنه لم ينقض عام ١٩٠٠ حتى كان الفرنسيون قد قتلوا ابن رابح ثم تدخل الانكليز لمؤازرة الفرنسيين فكان

من نتيجة تدخلهم أن خضعت برنو لسلطانهم فأعادوا عائلة الشيخ محمد الأمين الكانمى إلى الحكم واحتلوا البلاد بدعوى حماية الأسرة الحاكمة وهكذا رويداً رويداً دخلت البلاد ضمن الممتلكات البريطانية وصارت إحدى مديريات مستعمراتهم الكبيرة فى تلك الجهات نيجريا نسبة إلى نهر النيجر العظيم .

ولهذه المناسبة نقول أن البرنو أو البرنوح ، أقصى مديريات شمال نيجريا من جهة الشمال الشرق وجنوب بحيرة تشاد ، يقطنها خليط من البرنو والكانجو والعرب والفلاته . والبرنو هم السكان الأصليون ويقال أنهم من عرب جهينة الذين نزحوا من مصر مدة الفاطميين واستوطنوها بعد أن غلبوا أهلها عليها وأسسوا مملكة واسعة جعلوا عاصمتها « قزرقمو » وكان بين سلاطين البرنو وملوك مصر علاقات ودية وصلات حبية متينة أدى وجودها إلى تعليم عدد كبير من البرنو المهاجرين فى الجامع الأزهر الشريف حيث خصص لهم رواق مثل السنارية وكان لرجوع أولئك المتعلمين لبلادهم أثر صالح فى نشر العلم وقواعد الدين الإسلامى بين مواطنيهم فكان نور العلم دائم البزوغ فى تلك البلاد النائية عن مركز الإسلام . وفى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى استلم مقاليد الحكم رجل أزهرى من الكانمبو يسمى الشيخ محمد الكانمى مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية وكان يلقب « بالشيخ » لا السلطان وعندما دخلت هذه البلاد فى يد الانكليز فى بداية القرن الحالى

انتقلت السلطة الفعلية إلى يد المقيم الانجليزى . ويتكلم البرنو لغة خاصة بهم أما اللغة العربية فلغة الدين .

وبعد مقتل سليمان الزبير وتشتيت جيشه كما مر ثار هارون الرشيد ابن السلطان محمد الفضل فى دارفور غير أن غردون لم يلبس أن قتله بعد عدة مواقع وانضمت جيوشه إلى خليفة السلطان دودبنجة فى جبل مره وفضلا عن ذلك فقد ثار الصباحى فى كردفان ولكنه لم يلبث أن قتل هو الآخر وتشتت جيشه ولجأت فلوله إلى جبال النوبة ينشدون السلامة فى الإقامة بين أهل الجبال . ونحن إذا اردنا أن نتحدث عن المآسى العديدة التى ارتكبها غردون مدة حكمه الطويل سواء كمامور لمديرية خط الاستواء أو كحكمدار لعموم السودان ونصف بين عامى سنة ١٨٧٤ ، سنة ١٨٧٩ وما ذاقه أهالى السودان من صنوف الفزع والهلع والذل والمهانة على يده لأعوزنا الزمن لنقص كل هذه الحقائق ولضاق بهذا الحديث مجلد ضخم ومع ذلك فلا مندوحة من أن نذكر طرفا من هذه المآسى التى لا تزال آثارها عالقة فى أذهان أهل السودان ويتناقلها هؤلاء جيلا بعد جيل ، بل ويقرها « التاريخ » فى مواضع كثيرة .

من ذلك على وجه الخصوص بأنه ما علم النساء والعائلات من أسرة الزبير بمقتل سليمان وأعمامه غدرا بعد التسليم حتى هيمن الرعب على نفوسهن واستبدت بهن الهواجس والأوهام وغاصت قلوبهن فى أرجلهن وتساءلن فيما بين أنفسهن عن المصير وهن يعلمن أنهن لو بقين حيث كن

لفتك بين الزنوج . لاسيما عساكر جمى باشا . وكانت الأفكار والصور والتخيلات وذكريات الماضى - ماضى العزة والسيادة والحاضر والمستقبل حاضر المذلة والهوان - ومستقبل الشكوك والمخاوف ، تكتظ فى أذهانهن ويدفع بعضها بعضا فلا يزيدهن التفكير فى ذلك كله إلا حيرة على حيرتهن فيقفن مشدوهات مغمورات بالمحنة ينتظرن من السماء إلهاما يرشدهن إلى سبيل الخلاص والسلامة وقد أدركت حقيقة الموقف وما يكتنفه من خطورة جسيمة « العازه بنت إدريس » وكانت العازه هذه « فكابية » الجيش أى « غناية » وهى امرأة فصيحة اللسان تقول الشعر باللغة المحكية فخطبت فى النسوة المشدوهات : « يابنات هُوىْ » لقد غربت حياة رجالنا فى غياهب العدم ، ولكن أرواحهم تناديكم : الفزعة : الفزعة : هيا : رجالنا غربوا وراحوا بعيد وبلا رجعة : رجالنا تركونا بلا وصية لأن العدو الخائن قتلهم غدرا ونحن هنا بلا انتظار : هيا افزعن من هذا المكان : اربطن أصلابكن وكرين (أى احزمن) هدمكن واشددن رحالكن فليس فى الوقت متسع : لا تدعن الكلاب تمتص « العنكليب » (أى قصب السكر) ولا تدعن زهور « الشاف » (الفتنة) تسقط فى الوحل وتطأها البهائم فاذا أدرككن العبيد أفترشن شعوركن واستحقت عليكن اللعنة الأبدية :

نحن نبادر بالفرار من الوقوع فى أيدى الأعداء ، ونجتهد فى الإفلات ونلجأ إلى كل حيلة . قد تكفل لنا الهرب ! هيا : هيا : ادرعوا السيوف والحراب كالرجال لا تدعوا الدمع يفيض وينهمر الآن :

الهرب نصف السلامة والعيب على من توانى ! وماهى إلا دقائق معلومات حتى هجرت النسوة امكنتهن وصرن يهمن على وجوهن يقطعن الفيافى ويخترقن الغابات الكثيفة ، ويسلكن المفاوز والوديان المخيفة سائرات على غير هدى حتى حللن بمديرية كردفان بعد أن اخترقن دار النوبة ودار حُمُر ودار المسيرية والحوازمة وقد صرن فى أرض مغبرة قحلاء حتى صرن فى حالة ملئها التعاسة وتجلت عليهن مظاهر الكآبة وآيات المتربة وكلما صادفن « فريقا » (أى منزله) من فرقان العرب نزلن به وهن يصرخن صراخ الفزع والنجدة « صراخ الطنيب » (المستجير) ورائدهن العازه بنت إدريس المار ذكرها فكانت تخاطب رئيس القبيلة أو الفريق قائلة :

« ياعمار الوادى وسادة البوادى »
« يامجيرى الطنيب من بطش الأعادى »
« ياسادة الأمـــة وقادة الأئمـــة »
« ياحماة الدار وستارين العار »
« ياموئل الخائفين وحماة المستضعفين »
« بحرمة داركم وموقد ناركم أن تأوونا »
« نحن داخلون عليكم من السيف والحيف »
« نحن نستحلفكم بالعرض وحرمته والدين وغيرته »
« نحن طالبات منكم الحماية من عدو ديننا وعدوكم »

نحن بنات عرب عزاز وبنات قبائل اكم فينا
« الأمهات والخالات والعمات والأخوات وأنتم عرب »
« تحمـــون الزمار وتأوون الطريد وتطعمون »
« الشـــريد من الرجال . قـــد جئناكم طائبات »
« بعـــد أن قتلت رجالنا وصـــرن أيامى ـ نحمل »
« اليتامى . فارفعوا عنا صـــدمات الزمان وعوادى »
« الأيام . لقد ترك رجالنا الدنيا للظلام ولنا وأنتم »
« ياسادة الدنيا وحـــكامها واقبالها . لا تسخروا من »
« هؤلاء الضعاف وأهـــل النيل والأرياف . أنتم »
« كالشبع الذى يذهب بالجوع . وكالكساء الذى »
« يغطى العرى . وكالسماء التى تطلع منها الشمس فتدفىء »
« البردان . وكالنار التى تنضج الطعام . وكالمـــاء »
« الذى يطفىء العطش . وكالدواء الذى يشفى المرضى »
« ويحيي الموتى قـــد جئناكم طائبات لتأوونا وتخففوا »
عنا ما نحن فيه من تعس وشقاء »

فيرد الشيخ قائلا :

« أبشرن ستكن فى أعز جوار وامنع »
« ذمار . لقد عطفت أحشائى عليكن بعد »
« ما علمت أمركن . فاسترحن على مهاد »
« الراحة والأمان واملان قلوبكن بالطمان »

فتجيبه :

« هـــذا هو المأمول فيك ياعشاى »
« بارك الله فيك وفك تعاسير دنياك »
« ويسر لك سبيل مقصودك »

مضى محدثنا يقلب ناظريه فى وجوهنا المتلهفة إلى سماع حديثه وقد لاحت على اساريره علائم الشجن والحزن ، ولعله كان يطربه مايحسه من شوقنا وتلهفنا إلى ارسترساله فى هذا الحديث الممتع . غير أنه لم يطل الصمت فقد تنهد ورفع رأسه وقال : ما أظنكم أيها الحبان رأيتم مارأيت على أن مخيلتى لم تخلق هذه الصور ولم تنسجها من خيال كاذب ، ولكنها وليده مشاهداتى الشخصية فقد كان والدى ضمن رجال سليمان الزبير الذين قتلهم (جسى) باشا غدرا بامر غردون وكنت . أنا الشايب الآن فى سن الوعى والمراهقة وكنت اصحب أمى فى هذه السربة التى ، اقص عليكم الآن حوادثها . أيام ان كنا ، وكان لنا جاه وكنا حكام وأيام ان كان لنا شأن وعز وصولة- هى أيام مضت وانقضت بخيرها وشرها. ولكنا مهما تغافلنا عن الماضى فلم ننس سياسه المدوان التى إذاقتنا مر العذاب ، ونكلت بالآباء وتنمرت لهم فكثير من رجالنا الذين كللهم المجد تحولت سيرتهم تحولا مؤلما . فى حين التمس غيرهم لانفسهم مأوى فى خارج السودان يلجأون إليه امثال رابح الزبير وأعوانه وبقوا به يغمرهم الاسى وقد جر عليهم الدهر ثوب النسيان ... ثم تنهد وقال :

« اذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، واذا لقيت شكواه قلبا واعيا انتقلت إليه ... وها انا اقص عليكم نصيب هؤلاء النسوه من الجهاد — فى شان الله — وما اقمنه من مناحات . وماتعيه ذا كرتى من اناشيد الاسى والشجن . غير انى اسارع فاقول لكم أنه كان بين هذه (السرية) نساء جميلات غاية الجمال . كن ينتصبن كاشفات الرؤس فكانت تتدلى شعورهن المحلوله الفاحمه فوق صدورهن الفاتنه كانهن تحف نادره بين نساء البوادى . أو كانهن تماثيل حية من آيات الفن الفرعونى صاغتها آلهة المصريين على ماتشتهى وتشاء . ذات قامات فارعة واجسام بضه ناعمة فتية . وعيون (جعليه) عميقة ساحرة . فى نظراتها فتنة واغراء . وكانت هذة العيون الساهمة الدامعة ترسل نظرات ساحرة تفيض اشفاقا ورحمة فقدماتت الابتسامات على تلك الشفاة الغضة الخضراء التى تستهوى النظر وتأخذ بمجامع القلوب والتى كانت يوما ماتبسم فى مرح الشباب ورونق الحياة . . .

كانت الصبية تنتصب فينصت الناس كأن على رؤسهم الطير وتعدد مناقب وليها بصوت مؤثر حنون . تبدو فى نبراته رنات الشجو والشجن المثيرة . فتنادى الليل وتناجيه . وتشكو له وتشكيه . وتخاطبه فى مثل هذه الرقة المشجية ، النغمه الباكية . وكان هؤلاء النسوه يقمن المناحات أينما حللن فترى النادبات منهن ينشدن المراثى الرقيقه دتئن لها أوتار القلوب بألحان كئيبة مؤلمة فهذه امرأة تناجى ابنها بالبكاء وزرف الدموع وتتحدث إليه بكلام مؤثر فتبكى العيون وتدمى القلوب وتعقبها امرأة

أخرى تناجي أخاها كأنه ينطق وهو جامد اللسان بعيد عن المكان فتقول :

« قم يامحمد شدوا لك العاتى »
« قم يامحمد اعدل الخاطى »
« قم وقل يافاطمة هاتى »

وتلك امرأة تودع ابنها بكلام مؤلم فتتحدث إلى الأحجار وتخاطب الأشجار والنجوم الساهرة وظلام الليل وكواكب السماء ثم تعطف وتقول :

« ياعمار الوادى وديعتى عندكم احرسوها بألطافكم : إن روح ابنى »
« ترفرف بأجنحتها تطالبكم بحق الدم . أما جسمه فراقد رقده الأبد »
«مضطجع فى لحده . إن نسمة الصبح العاطرة واغرودة الطير الساحرة»
«وصيحة الديك الصادحة وصدى النحاس الداوية .لن يحرك لهم سا كنا»
«ولن يبعثهم من مرقدهم الهادىء. لقد قتلوا غدرا ولم تعد أسماؤهم تتلألأ»
«فى صفحة الخلود ولم تعد ألوية الفخر تخفق فوق ربوعهم حتى تبقى ذكراهم»
« نبراسا يهتدى به المدلجون فى غياهب الزمن السحيق .·. لن ترى الزوجة »
« مهللة للقاء زوجها حين أوبته . ولن يمضى الأطفال هاتفين يزفون بشرى »
« قدوم أبيهم أو متسلقين ركبته . أو متخاطفين قبلته... لقد قتلوا غدرا »
« بعد التسليم .·. إن الجسد لفى شوق إلى صدر حنون يركن إليه والعين »
« الذابلة لفى لهفة إلى بعض الدموع المنسكبة والآن ليصمت كل همزة »

« لمزة ليستمع إلى صوتهم وهم يهتفون من أعماق القبور قائلين :

« نحن قتلنا غدرا والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله . نحن نستحلفكم ،
« بحق السنة ألا تدعوا الدم يصرخ إلى السماء صراخا أليما فى الليالى ،
المظلمة لئلا تنزل بكم الضربات الهائلة التى تأمر بها شريعة الانتقام » [1]

وكان النساء يلبسن لباس الحرب والنزال ويتدرعن عدة الحرب ويقبضن السيوف كالرجال المحاربين وتتسابق البنات الحسان كاشفات رؤوسهن وتبرزن وتتجزن وتعرضن كأنهن فرسان فى ساحة الوغى يصرخن بأعلى أصواتهن :

« نحن بعد أن اباد العدو رجالنا البواسل ،
« لانرضى بالاستكانة ولا نقبل المهانة والضعة ،
« ولا نرضى أن يطلق علينا « فضلة السيف » لقد ،
« تركنا الخباء والحجرة ، وفضلنا الجهاد والهجرة ،
« نحن ناس الحرب ، نحن أهل الطعن والضرب ،
« نحن لا نموت على الفراش كما يموت الجبناء الاذلاء ،
« نحن استعضنا أنفسنا بالرجال ـ نحمى الذمار » .

---

(١) يعتقد أهل البادية أن دم المقتول يصرخ دائما فى الليالى الدامسة ويطلب الثأر . وإذا هدر الدم اضطرب العرب كلهم واستمرت نفوسهم غضبا حيث يزعمون أن الانسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طير فلا يزال يصيح ويصرخ إلى انه يؤخذ بثأره وفقا للمبدأ الجارى مجرى السنة « العين بالعين والسن بالسن » .

« ونأخذ بالثار . ونغسل العار ـ ياعمار الوادى »
« ياأهل البوادى أوقدوا النـيران واطرقوا »
« الحراب وحموا السيوف . . . لاتتوانوا . . . »
« لاتجعلوا الساق يستقر على القدم فيوم الشكر »
« قريب . . . قريب : قرب الذقن للشارب وقريب »
« قرب الكتف للغارب . »

وكانت العازه تقف بين العربان وتكشف عن رأسها تطلب النجدة تارة ومعددة مآثر الزبير وابنه سليمان تارة أخرى فتقول :

« ولد حدباى كريم ما كرم بَلاَبْصَهْ (١)
« كريم يرحم العدمان اللى إيده يابسه (٢)
« كريم يعطى اللى مخلوقتـه كابسه (٣)
« كريم يدخل العوجه الفرسانه لابسه (٤)
« ما نمام ماماسكك الحرص فى باله (٥)
« ما كذاب مايسمع حدايث قالوا (٦)
« يتبسم بالضحك وقت العديم يصغا له (٧)

---

(١) كان الزبير يوصف لحدباى الفارس المنتصر والمقصود أن سليمان كان كريما من حق لا كرم تظاهر (٢) يجزل العطاء للمعدم (٣) كريم على من ركبه العدم (٤) يجود بنفسه ولا يحجم على الدخول فى معمعة الحرب (٥) لا يعرف النميمة ولا أستمع الى أحاديثها (٦) لا يكذب ولا يستمع الى الكذاب (٧) يخفف من ويلات المكروب بالضحك

«ايده مساعداه للعطاء اللى بيستر حاله (١)
«كم ياسليمان شدولك على متبور (٢)
«ويدك يابو نَفَل تفعل قدرماتدور (٣)
«كم كمَّل عيالا تضبط الكبسور
«كم كمَّل عيال الميرى والمأمور
«كم كمَّل عيالا تأمر تقول حذدور (٤)
«كم كمَّل عيالا فوق الحرابة تدور
«كم كمَّل عيالا غدى الحده وصقور (٥)
«كم كمَّل عيالا حثت مصر واستمبول (٦)

ثم تعود فتثنى على سليمان الزبير قائلة : —

«أوريك نفايلهم اللى كلهم باعرفهم (٧)
«الخوف والبخل بالسكه مايصادفهم
«كل مرجوب يشلوه فوق اكتافهم (٨)
«والغريب فرد يوم كلهم بألفهم
«ان خطر او مستقيم هو ابن ملوك
«واد الزبير الصافى ما مشروك
«غير سليمان كل الأمل يوك يوك (٩)

---

(١) ويده تساعده على جزل العطاء (٢) جياد الخيل (٣) الاصيل واليد المطلقة تجيد النيشان (٤) التفات (٥) أى أنه أشبع الطيور باللحوم البشرية (٦) اباد شبابا أيقظ مصر واستمبول (٧) أى خصالهم التى امتازوا بها (٨) كل من اخنى عليه الدهر (٩) كلة تركية معناها (مفيش) او معدوم

املأ اليد صحيح وقت الحديث شوك شوك [١]

وكان لصراخ أولئك النسوة اثر فعال فى اثارة العواطف وتحريك كوامن الحقد فى قلوب العرب ضد الحكومه ومما يحكى وتتناقله الالسنة أن الامام محمداحمد سمع ذات مرة امرأة تبكى وتنوح على زوجها وعائل أولادها فتائر وبكى بكاء حارا أبكى من كان حاضرا معه وقد طلبت من محدثى الشيخ العوض ان يعيد على مناجاة هذه المرأة حتى يتسنى لنا إثبات شىء منه لتصوير ذلك (الجو التاريخى) الذى كان يحيط بالناس فى تلك الايام الخوالى فقال : —

« حالى حال العدو المسكين .

« حالى حال إلبهمْ إتكينّه للسكين .

« حالى حال المَلسوع سَرت فيه سموم الثعابين .

« حالى حال أم البنيه لمن جناها يبين [٢] .

ومما يؤيد ذلك فان مراثى هذه النساء مازالت حيه تدور فى الافواه وترن فى الاسماع حتى اليوم فى غناء المكروب وعزاء المحزون .

ولما رأى عرب كردفان مادهمهم من مصائب وماتوالى عليهم من نكبات ورأوا مصير سليمان الزبير وهارون الرشيدى والصباحى وما أصاب نساءهم ورجالهم من تعاسه تملكهم السأم من الحياة وشعروا بالنقص فى

---

(١) كلمة تركية معناها (وافر)

(٢) ومعنى ذلك أن حال هذه المرأة التعسة كحالة معدم فقد كل رجاء وأصبح كحيوان شد وثاقه وعلى رقبته سكين أو كملسوع سرى فى جسمه السم أو كحالة أم ظهر على ابنتها الحمل وهى لا تزال عذراء

كيانهم وبالفراغ فى قلوبهم وعلى ذلك فانه ما أعلن الامام محمد احمد الثوره حتى رموا بأنفسهم فى أحضانها فكانت عرب كردفان أول من لبى النداء دفاعا عن كيانهم وكيان رجوليتهم مفضلين الموت فى سبيل الله على الموت أذلاء مهانين فكانوا اشبه بنهر طغى وفاض ماؤه من فوق الجسور فاغرق الحقول وخرب المزارع ولم يعق اندفاعه عائق أو كالمصروع أصابته جنه فهبوا للجهاد بغية الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء وتعاسه بالغة وصار شعارهم ذلك القول الذى رددت الوديان اصداءه فى طول البلاد وعرضها «**فى شان الله**» : «**فى شان الله**» : «**فى شان الله**»

° ° °

وأمعانا فى إثارة شعور الأهلين انشأت الادارة مدة حكم غردون مصلحه أطلقو عليها اسم (مصلحه الرقيق) وعين لها غردون من يدعى جلر باشا مديرا فقام جلر المذكور لتنظيم هذه المصلحة واستخدم معاونين ومأمورين وجند الهجانة والمشاة ثم أنشأ للمصلحة فروعا فى أنحاء السودان فانتهز الأرقاء من نساء ورجال هذه الفرصة وصاروا يتركون أسيادهم ويفدون أفواجا على هذه المصلحة فتعطيهم تذاكر حريه بختم الحكومة . وامعانا فى التحدى والنكاية عمدت الادارة إلى تشجيع الرقيق واغرائه على ترك أسيادهم وصارت تقدم لهم الغذاء والكساء وتصرف لهم (الجراية) من أموال الحكومة فوقف دولاب العمل (فى البيت والغيط) على حد قول السودانيين ووقفت النساء العربيات مشدوهات

لانهن لم يمارسن (طحين الاذرة على المرحاكة حتى يصير عجينة) ولم يمارسن (عواصة هذه العجينة على الدوكة حتى تصير كسره) أى خبزا يؤكل ناهيك بالخدمة المنزلية الضرورية وورود الماء وخدمة (الضيفان) وغسل الملابس . وكان من عادة المرأة العربية انها لا تتزوج بدون أمه أى جارية تقوم على خدمتها فى حياتها الزوجية عملا بالقول المأثور (العربية تحمل وتلد والأمه تطحن وترد) حتى أن عدد الجوارى والعبيد الذى يقدمه الزوج كان يثبت فى عقد الزواج ضمن الصداق وفضلا عن ذلك فقد أنشأت الحكومة ـ امعانا فى الهاب الخواطر مكاتب لاعطاء (تذاكر ترخيصات) دعاره للجوارى الحسان حتى يمارسن المهنة تحت حماية الحكومة ثم خصصت لهن أماكن أطلق عليها اسم (كرخانة الحكومة) .

وخصصت الحكومة أيضا (اندايات) لصنع الخمر وشربها وكان غرض حكومة غردون على ما يبدو ان تستقى ماتريده من معلومات سرية بخصوص الرقيق وخلافه من هذه الأماكن الدنسة كما أثبته سلاطين باشا فى كتابه (السيف والنار) فتفشت الفحشاء وكثر المنكر وعمت البلوى وعظم الخطب وانتشر الفساد .

واكتظت مدن السودان أمثال الخرطوم والأبيض وسنار وسواكن وكسلا بآلاف مؤلفة من السفلة والرعاع وآلاف مؤلفة من (الشطار) الذين لا يملكون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة وأصبح المشتغلون

فى رعى الماشية وفلاحة الأرض من رواد اللهو والخلاعة ولما كانوا قد نفضوا عنهم ثوب الحشمة ولا يعرفون للشرف والطهر والعفاف معنى فقد انطلقوا مع (الفرخات) أى « الجوارى الصغار » ولهوا مع اللاهين يحدوهم إلى ذلك سعار إلى اللذة لم تبخل عليهم (الحرية الطائشة) اطفاءه بما كانت تقدمه لهم من صنوف اللذة التى تشتهيها نفوسهم فانغمسوا فيها انغماس الذباب فى العسل وكان يقوم على الخدمة فى الانداءات نفر من الجوارى اللواتى يحسن مع بيع الخمر بيع الصبابه والغزل الرخيص وصحب ذلك كله الشذوذ الجنسى والميل المنحرف وشاع حب الغلمان وقد يكون هذا الشذوذ موجودا فى كل مكان وزمان ولكن الجهر به وعدم التستر منه حتى أن صاحبه لايرى فيه عاراً فتلك حال ما كان يطيقها أحد بل لقد طغى الشذوذ لدرجة أن صارت الجارية لا تعد جميلة إلا بالقدر الذى يشبه جمالها فيه جمال الغلام .

وقد أشار سلاطين باشا فى كتابه (السيف والنار) إلى تفشى هذه الرذيلة أيام المهدية وقد تغاضى عنها الخليفة وسمى أصحابها (بالملاوطة) ولما كانت الجارية كما هو معلوم تقوم بما لا تقوم به (الحرة) فلابد إذن من صفات وخلال تعلو بها كفتها وتحبب الناس فى اقتنائها وهى صفات وخلال ترجح بعضها ـ فى نظر السفهاء كفة الجارية على الصفات والخلال التى تتحلى بها الحره . فامعن الجوارى فى حياة اللهو والفجور . ومع الخمر والجوارى جاء الغناء الذى أحكمته الصنعة البارعة . ونحن نقتبس العبارة الآتية من مقال نشر بجريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ جاء فيه : ـ أن المرحوم

الشيخ على عبد الله الذى كان فى ذلك الحين شيخ السجادة القادريه فى الخرطوم كتب عريضة إلى الحكمدار غردون يقول فيها أن له زاوية للعبادة تكتنفها منازل جملة للعاهرات اللواتى لا يقتصرن على السلوك القبيح بل يقلقن أيضا راحة العباد بما يحدثنه من الجلبه بالرقص والنقر على الدفوف والضرب على آلات الطرب : فأجاب غردون على عريضته هذه جوابا لا يليق بالأديب أن يدنس قلمه بنقله سامح الله كاتبه .

وقد حدثنى رجل عاصر هذه الحوادث فقال كان الجوارى يخرجن إلى الشوارع يغنين الأغانى الخليعة فى عبارات عارية مفضوحه منها على سبيل الكيد للنساء الأحرار ربات الخدور .

« كندروك . كندروك ما بناخذ العزبان

« تعزل فى القلوب رجالة النسوان

« نطلع فوق قلوبهن ونوقد النيران

« ونسقيهن مراير حنضل الجيزان»

وكانت الجارية تتعرض للشبان فى الطريق وهى تغنى بأقبح الأغانى وبدون خجل أو تستر تسد الدرب على الشاب تحاوره وتداوره وهى تقول :

« سمونى حركة أم حريكه

« أمى وأبوى دفعونى ليك

« تدفنى ياواد أمى تدينى ....!!؟»

. . .

جاء فى كتاب السودان المصرى والانكليز الحادثة الآتية نوردها هنا لدلالتها المثيرة : —

«مما كان يحدثه الانكليز فى السودان على يد سياحهم أن أحد هؤلاء السياح المدعو (المستر شوبر) الذى سكن السودان وجال فى أنحائه نحو خمس عشرة سنة ليضرم فيها نيران الشقاق كان ذات سنة مسافراً فى شواطىء البحر الأبيض فى جنوبى مركز الكوّة فنزل عند قبيلة رحالة اسمها (قبيلة سليم) وأقام بمنزل شيخها ضيفاً كريماً فكان رجالها يصحبونه إلى الغابات ليستطلع ما يريد ويرسم مايريد وكان من عادات القبائل الرحل أنهم كلما نزلوا فى الصحراء يقيمون مسجدا وذلك بان يجمعوا قليلا من التراب على شكل دائرة مربعـــة فأراد ذاك الضيف الكريم أن ينقل رسم هذا المسجد فى دفتر سياحته فرافقه إلى المسجد كل من فى الحى ليشاهدوا رسم الفوتوغرافيا وكان ذلك وقت آذان العصر فعندما سمع المستر شوبر المؤذن أخذ يجدف ويتفوه بكلمات يمنعنا إجلال مقام الدين من كتابتها فقام عليه الأهالى وبعضهم أراد قتله وقد نالته جراح ولكن شيخ القبيلة تدارك الأمر بكل صعوبة وحمى ضيفه بعد أن قتل أحد خدامه ورفقائه الإنكليز وتمكن من تهريبه ليلا :

ولدى وصوله إلى مركز الكوة أرسل إلى الحكمدار غردون برسالة يخبره فيها بما جرى له فقامت قيامة الإنكليز على قبيلة سليم ومخرت البواخر عباب النيل حاملة أربعة آلاف جندى لقطع دابر تلك القبيلة الضعيفة التى أهانت الشرف البريطانى على حدقولهم فحاصر هذا الجيش قبيله

سليم بالمدافع والخيول تحت قيادة المستر شوبر وذلك قبيل الفجر وأمطر عليها نارا حامية فأهلكها على بكرة أبيها ولم ينج منها إلا رجلان وامرأة اختبأوا تحت القتلى الذين بلغ عددهم ١٠ آلاف ذهبت ارواحهم ضحية لإهانة النفوذ الإنكليزى المشئوم .

وعلى أثر هذه الحادثة أصبح البسطاء والعامة من السودانين يعتقدون بما يقوله لهم الإنكليز من أن الحكومة المصرية والأتراك لا يدينون بالدين الاسلامى لأن أهلاك قبيلة سليم بإرسال أربعة آلاف جندى عليها كان بأمر خديوى مصر ولكن العقلاء كانوا يعرفون سر الدسيسة وهو أن الحكمدار غردون كتب إلى الخديوى يقول أن قبيلة سليم نبذت طاعة الحكومة وثارت عليها فأذن سموه بكبح جماح الثائرين وتأديبهم .

وكان المهدى تجاه هذه المظالم يشدد النكير على الحكومة والناس يستنيرون بآرائه ويتنورون بنار ذكائه وأخذوا يرتقبون فرصة للخروج من ربقة تلك السيطرة الانكليزية . أما السودان فبعد أن كان يؤدى إلى مصر جزية سنوية بعد نفقاته نحو ٤٠ ألف قنطار سنا ونصف مليون من الجنيهات أصبح يتقاضى من خزانتها مليون جنيه فى السنة لينفقها فى مصالحه مما لم يعهد له مثيل منذ ضم السودان إلى أملاك مصر . فليتأمل العاقل إلى أى حال أوصله الجور والظلم وفى آية هاوية أوقعه أولئك المصلحون . »

. . .

جاء فى كتاب (السودان المصرى والانكليز) ويتصل إتصالا وثيقا بموضوعنا قول صاحبه ما يأتى :—

وعلم القراء ما أحدثه الإنجليز من الفتنة والعداوات فى داخلية السودان أى فى مديريات دارفور وكردفان وفاشوده وبحر الغزال ولما كان غرضهم الوحيد هو سلخ السودان عن مصر بتعميم الاضطراب فى جميع أنحائه حتى تعجز الحكومة عن قمعها وكبح جماحها أخذوا يسعون فى بث الشقاق بين قبائل السودان الشرقى أى فى مديرية كسلا ومأمورية القضارف ومحافظة مصوع وهرر وزيلع وسواكن فاستعملوا عليها جماعة من مأجوريهم الإيطاليين والنمسا وبين مثل (مازويك مبسيداليا) وغيرهم من أعوانهم وممن تحققوا ميلهم إليهم من أولئك الذين لا وطن لهم غير الراتب فراح هؤلاء يضرمون نيراق الشقاق بين هاتيك القبائل ولحسن الحظ أنهم لم يفلحوا وظلت أمم السودان الشرقى مخلدة إلى السكينة التامة وطاعة الحكومة ومصادقتها وكانت عروق التجارة بين هذه الأمم وبين الحبشان دائمة نامية لأنهم كانوا مستوطنين بلادا واقعة فى جيرة الحبشة من ناحية الغرب وفوق ذلك فإنهم كانوا متوادين متحابين وكان النجاشى يوحنا محافظا كل المحافظة على مصافاة الحكومة المصرية وبينه وبين سمو الخديوى اسماعيل باشا رسائل ود وحسن تواصل وتهاد وما ذلك إلا لأن المصريين لم يكونوا طامحين إلى بلاده فلم يكن مضطرا إلى إقامة حامية عسكرية فى تخومه أو حشد جنود لرد غاراتهم وصد مطامعهم كما تفعل إيطاليا اليوم مع خليفته وذلك مع طول مدة مجاورتهم له التى لا تنقص عن ٧٠ سنة ولذلك ترى الأحباش اليوم يأسفون على فراق مصر جارتهم الأمينة الألوفة ويرددون زفرات الحنين على بعدها .

ولما خابت مساعى الإنكليز ومأجوريهم فى إحداث ثورة فى السودان الشرقى مع ما بذلوه من أموال الخزانة المصرية ورأوا أن سكان هذا الشرق لا يزدادون إلا سكونا عمدوا إلى الحيل التى حركت سواكن والجهات الأخرى وعطلت تجاراتها فأخذوا يستأجرون لصوصا بمرتبات شهرية ويأمرونهم بقطع السبل التى كان يسلكها التجار الوطنيون والتجار الحبشان فأخذ التجار حذرهم وأصبحوا لا يسافرون إلا إذا احتشدوا ألوفا لتسهل عليهم مقاومة أولئك اللصوص السياسيين وصيانة تجارتهم فأفلحوا افلاحا مبينا .

ولما رأى الانكليز وأنصارهم أن هذا المسعى الجديد لم يغن فتيلا أخذوا يدبرون غيره . فقر رأيهم على زيادة المكوس والدخوليات فضربوا على زق العسل أربعين قرشا مع أنه لا يساوى إلا خمسه قروش فقط وجعلوا على قنطار البن ٨٠ قرشا مع أن ثمنه ٦٠ قرشا لا غير . فقامت قائمة التجار ورفعوا عريضة إلى الحكمدار غردون يشكون فيها من لائحة المكوس والدخوليات الجديدة فعنفهم وقال لهم إنكم نخاسون تجلبون الأرقاء من بلاد الحبشة وإنى أريد قطع تجارتكم هذه ثم أصدر أمره بأن كل من شكا من هذه اللائحة يحاكم طبقا للائحة بيع الأرقاء وذلك كفعله مع زملائهم التجار فى دارفور مما أشرنا إليه فى رسالة سابقة

أما تجار الحبشان فكانوا يأخذون منهم تلك الضريبة الفاحشة وفوق ذلك يقيمون لهم العراقيل تذهب بأموالهم كما تقام العراقيل فى وجه

التجار السودانيين الذين يتواردون إلى مصر فى هذه الأيام فرفع الحبشان شكواهم إلى النجاشى يوحنا فكتب كتابا إلى الحكمدار غردون يسأله فيه الرفق بتجار بلاده ويذكره بالمعاهدة الموضوعة بينه وبين الحكومة المصرية القاضية بألا يؤخذ منهم أكثر من اثنين فى المائة فاغتنم الحكمدار غوردون فرصة ورود ذاك الكتاب لياتى عملا يكون قاضيا على مصافاة الحبشة لمصر بل يكون سببا لإعلان الحرب بينهما مما تكون نتيجته قطع التجارة وحمل الحكومة على القيام بمعدات الدفاع وحشد الجنود إلى التخوم حتى يكون لشرق السودان أسوة بغربه فكتب إليه جوابا حشوه السباب والتهديد والوعيد ومما جاء فيه قوله للنجاشى :

« إنى ساجمع جنودى وأفعل بك كما فعل الإنكليز بسلفك النجاشى كاسه فخذ لنفسك الحذر وسوف تعلم إننى لست خائنا كالاتراك »

ولحسن الحظ أن النجاشى عندما ورد إليه هذا الجواب قال لمن حوله «أن هذا الرجل انكليزى وأنه يريد أن يوقع بينى وبين صديقى الخديوى اسماعيل باشا فأولى لى وأحجى لى أن لا أجيبه » فاستصوب وزراؤه هذا الرأى وأشاروا عليه بان يكتب إلى الخديوى يخبره بهذه الحادثة التى أثار عامله الإنكليزى غبارها ولم نعلم ما جرى بعد ذلك ولكننا رأينا الحكمدار غردون جمع جنوده المصرية فى القلابات المجاورة لمدينة غندر وبالغ فى إظهار العداء للنجاشى وفى آخر الأمر سافر من القلابات إلى عاصمة بلاد الحبشة فقبض عليه وعلى من معه

وسيقوا إلى العاصمه لمحاكمتهم حيث دخـــلوا على الملك النجاشى بلا استئذان وأخذ غوردون يعتذر إليه بقوله إنى كنت مأمورا بان أكتب إليك الكتابة وأن الذى أمرنى هو صديقك الخديوى اسماعيل باشا فلم يصدقه النجاشى وأقر وزرائه على محاكمته فسبق إلى المحاكمة فحكم عليه وعلى من معه بالاعدام ولكن لما عرض الحكم على النجاشى يوحنا ليصدقه أبى وقال أن الرجل لم يخرج عن كونه عاملا لصديقى خديوى مصر فقتله يعد إهانة فى جانب صداقته فاطبق الرأى حينئذ على إطلاقه ليعود إلى التخوم المصرية ولكن من غير الطريق التى أتى منها فيسافر من طريق اسمره مصوع مخفورا ويكون سفره فى الليل لا فى النهار لئلا يكون جاسوساً انجليزيا .

(أما الإنكليز فالتهبوا غيظا لأنهم لم يفوزوا من لدن نجاشى الحبشة بما فازوا به من لدن ملك زنجبار) وبهذة المناسبة يصح لنا أن نذكر مسالة زنجبار والبلدان المجاوره لها كما ورد فى نفس الكتاب ضمن المقالات التى نشرها صاحبه فى جريدة الأهرام قال « تقدم لنا القول فى إحدى المقالات السابقة أن المنظور والمؤكد أن تكون أوغندا وما يجاورها من البلاد طعمة لمن هو صاحب السلطة على أملاك خط الاستواء التابعة لمصر أى أوغندا وما فى جيرانها من البلدان كما ينتظر دخولها بحوزة مصر .

وقد أوردنا فى المقالات السابقة ذكر الفتنة والاضطرابات التى

أضرم الانكليز نارها فى داخلية السودان المصرى قبل ثورة المهدى بزمان وأخذوا يحبذون كل رأى خطير لهم فيها ويستخدمون نفوذ الحكومة المصرية فى قضاء مآربهم وأطماعهم الإنكليزية .

ومن ذلك أن الجنود المصريين كانوا يرسلون حملة أثر حملة لبث النفوذ المصرى بين تلك القبائل فكانت لا تلقاهم إلا بالخضوع ولا تستقبلهم إلا بالحفاوة وفى سنة ١٨٧٢ شخصت احدى هذه الحملات عن طريق اوغندا الى زنجبار فلم تلق فى طريقها اقل عثرة حتى بلغت تخوم المملكة الزنجبارية فاستقبلت هناك بكل بشاشة وإيناس واظهر لها السكان ميلهم الى مخالصة الحكومة المصرية وحظى قائد الحملة المصرى بمقابلة ملك زنجبار فلقى من الأكرام والحفاوة بين يديه اضعاف ما لقيه عند قواد التخوم فأظهر له الملك رغبته فى مصادقة الحكومة المصرية وأنه يريد أن تظل مملكته بالعلم المصرى على شريطة أن يمنح امتيازا خاصا يضمن له السلطة عليها وابدى له اسفا شديدا على كون قومه المصريين لم يعرفوا بلاده منذ زمن طويل . ثم اخبره أنه تابع لأمير المؤمنين وخادم الحرمين وانه يخطب باسمه فى كل بلاده وبعد ذلك عقد مع القائد المصرى اتفاقا وقع عليه الأثنان ليعرضه القائد على حكومته المصرية حتى إذا اصدقته اصدر الأمر باتباعه وهذا نصه بحرفه .

المادة الأولى :

أن تكون مملكة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية ويكون الملك محصورا بالتوارث بين ذريه الملك الحالى أو بين اسرته

وبالجملة ان امتياز الملك فى مملكته يكون شبيها بامتياز سمو الخديوى اسماعيل باشا واسرته فى مصر .

المادة الثانية :

ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة الحكومة فى زنجبار وبتنظيم المالية والجند طبقا للنظامات المتبعة فى الحكومة المصرية ولا يجوز تعيين مصرى لأية وظيفة كانت إذا وجد وطنى يقدر على القيام بها .

المادة الثالثة :

ترسل الحكومة المصرية مندوبين من اصدقائها ورجالها الجنوبين ليؤيدوا كل النظامات التى تسن فى مملكة زنجبار بشأن إنشاء نظارات مالية وداخلية وحربية ونظارة المعارف ونظارة الأشغال ويكون التلاميذ المتخرجون من مدارس المملكة مقدمين على غيرهم فى الترشيح للوظائف ولا يجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت حرب دينية بين امير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو حينئذ جنودا من زنجبار . ثم أن علائق زنجبار وصلات شؤونها كلها من الدول الأجنبية يكون عقدها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية .

المادة الرابعة :

لا يجوز للحكومة المصرية أن توظف فى مملكة زنجبار احدا من

الأجانب الغير المسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها فلا بأس حينئذ من منحهم وظائف .

المادة الخامسة :

أن كل الأموال التى تجبى من مملكة زنجبار تنفق فى شؤونها وما بقى بعد ذلك تؤخذ الى الخزانة المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل ازمة مالية أو حربية تصيب مملكة زنجبار .

المادة السادسة :

ينفذ مفعول هذه بعد اطلاع خديوى مصر عليها واصدار أمره بقبولها .

وبعد عقد هذه المعاهدة قفل القائد راجعا إلى خط الأستواء بعد ان ناب عنه احد الضباط المصريين مسرورا بما نالت حكومته مبتهجا بكون هذه المعاهده الرابحة ابرمت على يده ولكن نسى أن حكومته فى غفلة عن هذا الفوز المبين وانها احلت فى مكانها اصدقاءها الانجليز ولذا وجد القائد هؤلاء الأصدقاء آسفين نادمين على كونهم فرطوا فى تسليم قيادة هذه الحاميه إلى قائد مصرى ولم يولوا انجلزيا أو إيطاليا عليها وايقنوا انهم ليسوا بمفلحين إن فازت مصر بهذه الأمنيه فقبضوا بأظافر النمر وبرائن الشاهين على تلك المعاهده التى كادت ارواحهم تزهق لدى مطالعتها ومن غريب ما احدثته ان الحكمدار غردون أخذ غداره مسدسة وأراد أن يقتل بها نفسه لولا أن امسكه ومنعه الخواجا نوراتو الايطالى ولحق

به المسيو فرد ريك وغيرهم من الانجليز ومأجوريهم وكان يردد هذه العبارة [ماذا يقول عنى قومى الانجليز إذا تم هذا الوفاق الذى جعلنى من انذل ابناء جلدتى] وبعد أن امسكوه واخذوا يسكنون روعه ثاب إليهرشده الذى استلبه عامل الحسد والطمع. فليتأمل العقلاء وليقيسوا على هذه الحادثه غيرها مظاهر الشدة والانانية الذميمة التى استأثر بها الانجليز واشتهروا بها فى العالمين بعد أن عدل غردون على مفارقة الدنيا أخذ هو وانصاره يدبرون طريقة يفسدون بها المعاهدة الزنجبارية فقر رأيهم على أن يبذلوا الرتب والوظائف بغير حساب لمن حولهم من الموظفين ليكتموا خبرها الرنان .

أما القائد الذى عقدها فحكموا أن لابد من إيقاعه فى جناية يختم بها عمره لأنه كفر بنعم الانجليز وهم الذين ولوه قيادة تلك الحملة فادعوا عليه أنه اشترى رقيقا من الزنوج وفى الحال قبض عليه وأودع فى السجن وامسك الحكمدار غردون المعاهده وكتب كتابا إلى سمو الخديوى اسماعيل باشا يقول فيه .

« ان ملك زنجبار قام فى وجه النفوذ المصرى واسر جماعة من التجار المصريين فأرسلنا حامية عسكرية لإستطلاع اخبارهم فلقيها لسوء الحظ بأشد ما يكون من العداء مقاومه طويلة حصرها فى إحدى النقطفاصبحت على شفير الهلاك وإنى أرى أن افضل وسيلة لانقاذها هى أن تهدى إليه هدية ثمينة ونتودد إليه عسى يكون وراء تودد:نا مافيه خلاص حاميتنا من يديه »

لله دره على هذه الحيلة وقد انطلت على المغفور له الخديوى اسماعيل باشا فامر بإرسال الهدية بلغت قيمتها ٢٠ ألف جنيه مصرى واصحبها بكتاب منه إلى ملك زنجبار فاخذ الحكمدار غردون هذا الكتاب والحقه بالمعاهدة . . .

وأرسلت الهديه مع المستر لوكس السائح الانجليزى الذى كان حاملا كتبا تدل انها مرسله من الدولة الانجليزيه إلى ملك زنجبار وتضمن تحذيرا له من وضع مملكته تحت الحماية المصرية ونصائح عديدة من علماء السوء بالقدح فى الامامه إلى غير ذلك من الهجاء الذى لانستطيع ايراده بالحرف الواحد ومماوردفيه أن مصرأمه بربريه فان كانت مملكة زنجبار ترغب الانحياز إليها كان انحيازها وبالا وشؤما والدليل على ذلك أن مصر تستخدم الأوروبين فى بلادها ليبثوا التمدن فيها وعلى أثر هذا التدليس والتمليق كسب الانجليز مودة ملك زنجبار باموال مصر وعدل هذا الملك عن نيته فى محالفتها ونبذ الثقة بها وانسحبت الجنود المصرية من تخوم زنجبار بدعوى انهم اطلقوا من الأسر وهكذا اختتم الطمع الانجليزى هذه الرواية المحزنة التى لانظن أن أحدا سمع بها وليته لم يسمع . »

ونعلق نحن على هذه الرواية فنقول : أن اسماعيل سيرهنك باشا قد نقل هذه المعاهدة فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ولكنه لم يستطع الوصول إلى معرفة اسم القائد المصرى الذى خرج بالحملة إلى زنجبار وعقد هذه المعاهدة مع « ملكها » ، ومع أنه قد تعذر علينا نحن كذلك

والوقوف على حقيقة ماجاء بها من وقائع مفصلة فمن الثابت أن الخديوى اسماعيل قد أرسل فى عام ١٨٧٦ حملة الى مصب نهر الجوبة لانشاء مركز يطل على المحيط الهندى مهمة حاميته مراقبة نشاط تجارة الرقيق فى الساحل الافريقى الشرقى ولكن هذه الحملة لم تلبث أن انسحبت نتيجة لاحتجاج سيد برقش سلطان زنجبار بتحريض من الانكليز وادعائه أن الأرض التى نزلت بها الحملة كانت من أملاكه . ومن الثابت المعروف أن غردون باشا نفسه كان أول من أشار على الخديوى بارسال هذه الحملة . على أن يخرج من ناحيته من اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء لمقابلة الحملة ومساعدتها ولكنه لم يفعل . ومن المحتمل أن يكون عقد المعاهدة السابقة قد جرت قبل خروج هذه الحمله من مصر وقيامها من السويس وأن تكون هذه الحملة من نتائج عقد المعاهدة . وفضلا عن ذلك فهناك من الكتاب من يعزو تقصير غردون فى الذهاب إلى الساحل الافريقى الشرقى إلى رغبته الصريحة فى تعطيل النفوذ المصرى فى هذه الجهات وخدمة المصالح الانكليزية . وقد يكون عدم خروج غردون من اللادو بسبب هذه المعاهدة . بيد أن كل هذه الأقوال ليست سوى احتمالات . وإنصاف للحقيقة والتاريخ نرى لزاما علينا أن نذكر أن موقف غردون من مسألة نهر الجوبا وزنجبار على وجه الخصوص كان سليما فى جملته وتفاصيله . أمارواية صاحب « السودان المصرى والانجليزى» فان أقل ماتدل عليه هو أن أهل السودان ومن عاصر منهم هذه الحوادث كانوا يرون فى كل فعال الانكليز خطة مبيتة ومؤامرة حيكوا أطرافها من زمن طويل كان الغرض منها تقويض دعائم الحكم المصرى فى السودان واقتطاع أطراف الممتلكات المصرية فى افريقيا تمهيدا لابتلاع السودان نفسه فى النهاية .

الفصل الرابع

إبطال الرق ومحاربة الإسترقاق

تمهيد . تاريخ العبودية والرق . الرق فى مختلف الأديان . الرق فى الولايات المتحدة . الفوارق اللونية فى أمريكا . منشأ الدعوة لابطال الرق . حرب الشمال للجنوب من أجل ابطال الرق . المشاكل الجنسية فى أمريكا وافريقيا . الاندماج الجنسى بين شعوب الوادى

قيل أن المسيح عليه السلام قابل الشيطان يوما فى السوق العامة ووبخه على سلوكه السيء فى بث الفتن وخلق المشاكل والمتاعب بين الناس

فاجابه الشيطان . الأمر على عكس ما فهم المسيح ثم تناول قطعة من الحلوى وألصقها بالحائط فوقعت عليها ذبابة . فرأت سحلية هذه الذبابة فوثبت عليها ، فشاهدت قطة تلك السحلية فقتلتها . وكان أحد الجنود البريطانيين يسير فى ذلك السوق مع كلبه ، فوثب الكلب على القطة فقتلها فقتل صاحب القطة الكلب فقتل الجندى البريطانى صاحب القطة .·. ولم يمض وقت طويل حتى وقع الاضطراب واستدعى اطلاق المدافع فالتفت الشيطان إلى السيد المسيح وقال :

« هل سمع سيدى صوت المدافع ورأى فتكها وأنا لم أصنع شيئا لإحضارها ؟

أما الإنكليز فقد كانت حلواؤهم التذرع بدعوة إبطال الرق وكان سوقهم السودان .·. وأين مكر الشيطان ، من خبث البريطانى ؟؟؟

فى مقدمة النقط التى يتلاقى عندها العلم والدين ما تقول به نظرية التطور أن الناس كلهم من أصل واحد . إذ الأرجح أن يكون هناك نوع بشرى واحد بدأ ظهوره فى آسيا أو فى غيرها بعد أن قطعت الأحياء شوطا بعيدا فى سلم التطور . . ثم حدث التنوع والاختلاف بين البشر باختلاف اتجاه الجماعات وتباين البقاع التى استوطنوها أزمانا طويلة . إذ أن للبيئة الطبيعية ـ كما لا يخفى . وما لتلك البيئة من مؤثرات المناخ والغذاء وأسلوب العيش وغيرها أثرا بالغاً فى تكييف الأجسام وتنوع الألوان وفضلا عن ذلك فللبيئة أثرها فى العادات والخلق . . وبذلك تنوعت السلالات البشرية وظهر بينها أقوام من البيض والسود والصفر والحمر . ويرجع ذلك التنوع إلى ما قبل تاريخ الإنسان المعروف بزمن بعيد .

أما السود فهم الذين لوحت شمس المنطقة الحارة بشرتهم وميزاتهم الاعتبارات الجسدية الوراثية عن غيرهم ، وحالت مؤثرات بيئتهم وعزلتها بينهم وبين التحضر والاندماج فى الأمم وكان لذلك الرزق الميسور الذى تفيض به الغابات والمراعى حولهم . وذلك الجو المرهق الشديد الحرارة ما حملهم على التراضى فى الكد أو التفنن فى التماس سبل العيش أو الاهتمام بالمستقبل فهم يعيشون فى الحاضر قانعين بالكفاف

يحيون حياة ساذجة فطرية مستسلمين للمقادير يعللون الظواهر الطبيعية بالسحر وفعل الأرواح، ويستوطن الزنوج بعض أنحاء المنطقة الحارة فى إفريقيا وجنوب آسيا ويعيش منهم نحو ١٥ مليونا فى أمريكا وهؤلاء يرجع أصلهم إلى إفريقيا، أما زنوج إفريقيا فسلالات مختلفة يجمع بينها سواد اللون. ومن أشهر السلالات السوداء سلالة السود أصحاب القامة الطويلة والرأس المستطيلة والشفاة الغليظة والأنف الأفطس والشعر المفلفل، أولئك الذين يقطنون المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطى إلى أعالى النيل الأبيض. ثم الأقزام الذين يعيشون فى حوض الكنغو والبانتوا وهم خليط من السود والحاميين القدماء وينتشرون فى الهضبة الجنوبية وكذلك سكان صحراء كلهارى وهم البشمان والبوشنتون الآخذون فى الفناء والانقراض. ثم الفولة والزندة والجلا والهوسه. وزنوج إفريقيا بل جميع زنوج العالم تحكمهم وتسودهم الشعوب البيضاء بما فى ذلك جمهورية ليبريا فى إفريقية الغربية وهى الجمهورية التى أسستها الولايات المتحدة الأمريكية ليهاجر إليها زنوجها اذا شاءوا الاستقلال والبعد عن المشاكل... وهذه الجمهورية تخضع فى الواقع للحماية الأمريكية وتحكم حكما غير مباشر. وليس لها من الاستقلال إلا الاسم.

وقد شرح كتاب «مانو» أحد كتب الهند المقدسة مذهب البراهمة ونشأة المدنية الآرية لجاء فيه أن أصل العبيد سبعة. أسير الحرب، ومعدم رضخ لمن يكفل معاشه. وابن العبد المولود فى بيت المولى، والفرد مهدى هدية أو مبيعا بيعا، والمنتقل بالإرث من الوالد إلى الولد،

والمستعبد عقوبة له على جناية ارتكبها ، والمستعبد لعجزه عن تأدية دين أو ضريبة أو غرامة . وسواء ألم هذا الإحصاء بكل الأصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب والحروب من خواص الخليقة ولقد تحكمت طبقة الأحرار فى مصائر طبقة العبيد السود ودخل هؤلاء الأخيرون فى حوذة الأحرار منذ بدأ العمران .

ويقول هربرت سبنسر أن أول العبيد هم أسرى الحرب وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب فى ولائم النصر . وأنه عندما كثر عددهم أجل قتل بعضهم للتلذذ بلحومهم المشوية فى وليمة أثيه ليصير النصر الواحد نصرين . واستخدم العبيد خلال هذه الفترة ، فأثار استخدامهم انتباه السادة المنتصرين عليهم إلا أن حياة الأسير أنفع للغالب من موته .

وعندما نزلت الشرائع أباحت الشريعة اليهودية أن يمتلك الناس بعضهم بعضا وأن يستعبدوا أخاهم اليهودى ستة أعوام أما غير اليهودى فيظل فى العبودية حتى الموت .

ولا يفهم ما ورد فى إنجيل يوحنا قولهم للسيد المسيح عليه الصلام « نحن لم نستعبد لأحد قط » وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الرومانى وقد بيعوا فى أسواق أورشليم ، وجاهروا فى كتاباتهم بأنهم استعبدوا سبع مرات فى أرض الميعاد . ومن يجهل بيع عيسو بكوريته ليعقوب بأكلة عدس أى بيع كل حقوقه وقبل العبودية لذراريه ؟ ولكن العرب الذين ينتسبون إلى عيسو كادوا يمحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف

الجائع . وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء فى مصر لخدمه فى السنين الجوائح وجر اليها ذويه فانتهى بهم الأمر الى الرق ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت كما ترويه الكتب المقدسة .

ألم يكن للنصرانية والاسلام من أثر فى القلوب لتحملها على الرحمة والعطف ؟ لا شك فى أن الدين أيا كان له تأثير ظاهر وأنك إذا أحصيت العوامل الكبرى ذات الأثر البليغ فى تكييف النفوس لوجدت الدين فى مقدمة هذه العوامل . وقد انتقى السيد المسيح تلاميذه من بين الخاطئين ومضى ينادى بالمساواة والغفران وحب الأعداء لأن الجميع أبناء الله يدعونه وكان الإسلام من الناحية العملية أكثر نفاذا إلى حقائق الأمور . وجد العبودية عند شعوب سبقته ولكنه لطفها إما تلطيف وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة. أنه أوصى باليتيم والضعيف وابن السبيل والرقيعة .

وكان الطائع الاول النبى العربى ذاته فقد بكى (صلعم) عبده الميت كما يبكى الكريم صديقا عزيزاً . فكانت حال العبد فى دين الإسلام أفضل حالات أمثاله . أما الاعتاق والدعوة إليه فمن أمجد صفحات التاريخ المحمدى .

والواقع أن العبودية عند المسلمين أخف منها عند غيرهم . ترى بين العبد والمولى تبادل أمانة ورعاية وصلة رحم وللعبد أن يتزوج أرملة

سيده وينشىء عائلة وحريته مكفولة والعبيد عندهم يقومون بشتى الأعمال فالنساء للخدمة المنزلية والرجال يفلحون ويزرعون ويرعون الماشية ويشتغلون بالأعمال الخشنة والصبية المتأنقون يقومون على خدمة الضيوف وإكرامهم ويعدون المركبات ويرافقون ابن مولاهم فى الصيد وفى النزهة ويشاطرونه دروسة وألعابهم كأنهم المماليك الصغار فى بعض البيوت الشرقية .

وهكذا عومل العبيد برفق فأحبوا مواليهم . إن غاب أحدهم يوما تألموا لفراقه وانتظروه باكين مسرورين عاد أقبلوا يلثمون يده ووجهه فرحين مستبشرين ،وإذا اكتسبوا ثقته . بحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم أطلق سيدهم أيديهم فى ماله وشئونه وحفظ لهم فى نفسه مكانة ظاهرة فزوجهم من بناته وصاروا أحب الناس وأقربهم إليه . وآية ذلك . أن مماليك الأيوبين فى مصر أنشأوا ملكا وأسسوا دولة عاشت طويلا .

وقد ظلت مصر والشام فى حوزة المماليك الذين ابتاعهم السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدة قرن وثلث قرن تقريبا من الزمان .

وصار الناس فى مصر والشام والسودان اما عبيدا واما موالى وصعب على الانسان أن يجعل حدا فاصلا بين العبيد والموالى لأنه حدث بفضل التزاوج والتجنيد وانتشار التعليم أن وجد بين العبيد من صاروا موالى كما وجد بينهم من هم عبيد وموالى فى آن واحد .

وعندما وصل محمد على باشا الى اريكة الولاية كان البكوات المماليك هم أصحاب السلطة الفعلية فى مصر . وكان الرق جزء من النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد فى البلاد . وقد وصف المعاصرون الأجانب ما يلقاه الرقيق (أو العبيد) من رعاية وعناية فائقتين من جانب أسيادهم . وعند ما دخل المصريون السودان كان الرق متغلغلا كذلك فى كيان تلك البلاد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . وكانت مهمة محمد على فى واقع الأمر تقييد الرق فى تلك الديار بصورة تساعد مساعدة فعالة على كبح جماح النخاسين وتخفيف ويلات الإنسانية بابطال الاسترقاق وتهيىء سبل العيش النافع للرقيق بالخدمة فى الجيش والحقل والمصنع . ولم تعرف مصر مدة محمد على وخلفائه أية فوارق جنسية تفصل بين العبيد السود وبين سائر أبناء الامة بسبب الامتزاج والاندماج وبغير تفرقة عنصرية حتى أنه لو استطال بنا الزمن لقضى على الفوارق الجنسية جميعها وخرج عنصر قوى جديد كالعنصر البرازيلى الذى هو نتيجة الاختلاط بين البرتغاليين البيض والهنود الحمراء والأفريقيين السود أو كما حدث فى شيلى حيث تبلغ نسبة العنصر الخليط نحو ستين فى المائة وفى بيرو حيث تبلغ نحو خمسة وثلاثين فى المائة وللقارىء الكريم أن يقابل بين هذه الحالات جميعا وبين حالة الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية الذين يبلغون نحو عشرين مليونا فإن لعلاقة الزنوج بالبيض هناك قصة طويلة مؤلمة تؤلف جزءاً هاما من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وخلاصة هذه القصة . أنه لما عزم الزعماء الأمريكيون أن يثوروا على انجلترا فى

الثلث الأخير من القرن الثامن عشر بحثوا عن أقدس الحقوق الانسانية واتخذوها شعارا لهم فصرحوا فى اعلان استقلالهم أن الحرية حق من حقوق البشر الأساسية وأن قوة الحكومة مستمدة من قوة قبول المحكومين لسلطانها فسوغوا بذلك ثورتهم على الانكليز بيد أنه مادان النصر لهم حتى نسوا هذه المبادىء النبيلة وكبلوا فريقا من البشر وهم الزنوج بالأغلال وكان الجشع والأنانية رائد الأحزاب السياسية الكبيرة وكانت هذه تؤيد الرق وتحمى ملكيته وقد ظلت الحال على ذلك نحو نيف وسبعين سنه حتى اذا تأسس حزب الجمهوريين قاوم هذا الحزب الجديد دخول الرقيق الأسود فى غير تلك الولايات التى كان موجودا بها فعلا فى ذلك الحين وكان هذا الحزب يلقى معارضة شديدة من جانب الحزب الديمقراطى القديم فى الولايات الجنوبية خصوصاً ذلك بأن أعضاء الحزب الديمقراطى فى الجنوب كانوا يرمون الى تعميم الرق فى كل البلاد بينما أصر أعضاؤه فى الولايات الشمالية على أن يترك لكل ولاية الحق فى تقرير شرائعها فيما يتعلق بمسائل الرقيق وكان بفضل نشاط الجمهوريين أن بدأ الرق الأسود يزول رويدا رويدا من بعض ولايات الشمال وبدأ يتسع نطاق المناقشات فى أمر إلغاء الرق عموما ولكن بعض الولايات الجنوبية ما لبثت حتى هددت بالانفصال عن « الاتحاد » إذا ألغى الرق فعمد فريق من الزعماء والقادة إلى التوفيق بين الولايات وازالة أسباب الخلاف بينها بأن أقاموا خطا فاصلا بين الحرية والرق وقسموا الولايات الى حرة وأخرى تبيح الرق .

زعم المصلحون الأمريكيون أن ذلك الرق الأسود سوف يزول بمضى الزمن غير أن الأمريكان ما لبثوا حتى اعتادوا وجوده واعتبروه شرا لابد منه ثم زادت أهمية الرقيق من الوجهة الاقتصادية حينما اتسع نطاق زراعة القطن فى الولايات الجنوبية وزاد تصديره إلى أوربا فكثرت الأرباح وعلى ذلك فقد تشبث أهل الولايات الجنوبية بنظام الرق وقد زادهم عنادا على عنادهم ظهور الجمعيات الاصلاحية التى أسسها فى الشمال (وليم جارسون) وقد بدأت هذه تنادى بعتق العبيد وكانت ترى فى الرق جرما يرتكب ولا يليق بإنسان شريف أن يرضى به .

وما أن انتخب ابراهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة عام ١٨٦١ وكان من كبار مؤيدى إلغاء الرق وتحرير العبيد حتى اشتد استياء أهل الجنوب وجاهروا بالعصيان والانفصال عن الشمال وكونوا دولة « كنفدرائية » فى الجنوب انتخبوا جفرسن رئيسا لها فأعلن لنكولن فى خطبة الرئاسة بأن الوحدة الأمريكية لا يمكن أن تنفصم عراها وأن كل عمل غايته القضاء عليها باطل ثم صرح بعزم حكومته على الدفاع عن حقوقها وسلطتها وإن اقتضى ذلك استخدام القوة . ثم حاول (لنكولن) أن يحافظ على الوحدة من غير أن يلجأ إلى قتال ولكنه أخفق فى مسعاه بسبب إصرار زعماء الجنوب على تمسكهم بموقفهم فبدأت الحرب بين أهل الشمال والجنوب واتسع نطاقها وتطاير شررها فكانت الحرب الأهلية الأمريكية المعروفة التى دامت نحو أربع سنوات والتى انتهت بفوز أهل الشمال عام ١٨٦٥ بعد أن قتل فى معاركها نحو مليون نسمة

وأصيب أكثر من نصف مليون بإصابات مختلفة وكان من نتائج تلك الحرب الأهلية أن قضى على الرق نهائيا باعتراف أهل الجنوب أنفسهم بالغائه وأدخل على الدستور تعديل يقضى بتحريم الرق فى جميع الولايات المتحدة الأمريكية غير أن إلغاء الرق أمر والوصول إلى حل لمعضلة الزنوج بأمريكا أمر آخر .

حقيقة يتساوى الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية مع البيض فى الحقوق قانونا ولكنهم يعاملون فعلا كالعجموات ذات النفع القليل حيث يعمد البيض إلى التخلص من الزنوج بشتى الوسائل وبخاصة إذا أتوا منهم شرا وتكاد تكون وسيلة الأمريكان فى ذلك إزهاق أرواح السود دون أية محاكمة . إذا ألقى سوء الحظ بأحد هؤلاء المناكيد فى أيديهم على أثر جريمة ارتكبت أو شر لحق برجل أو امرأة من البيض ووقع الاتهام على كاهن زنجى من الزنوج . ومع أن الدستور الأمريكى قد ساوى بين جميع أفراد الشعب فيما له من حقوق وما عليه من واجبات فإن بعض الولايات الجنوبية مثل (نيوأورليانس) قد حرمت قوانينها مجاورة الزنوج للبيض فى مساكنهم فلا يجوز لرجل أسود أن يتخذ مسكنا فى حى يسكنه للبيض ولا يحق لرجل أبيض أن يقطن فى حى مأهول بالزنوج وتعود أسباب ذلك للنفور الوراثى المستحكم بين السود والبيض بأمريكا إلى أسباب عدة :

أولا : أن الأسود إذا تزوج من فتاة بيضاء جاء نجلهما أبيضا أو

أسودا أو وسطا بينهما فإذا تزوج أحد الأمريكان البيض من ابنة الزنج البيضاء فإنهما قد ينسلان سلالة سوداء طبقا لقوانين الوراثة .

ثانياً : أن العامل الزنجى يزاول هناك الأعمال الحقيرة والمهن الوضيعة التى يعافها البيض . والزنجى يرضى بالأجر القليل الذى لا يرضى به العمال البيض .

ثالثا : أن الأسود لا يعترف بمبدأ تحديد النسل فهو كالحيوان يكثر من الأولاد ولما كانت تتكفل بذلك الحكومة حيث لا يستطيع الانفاق على تعليمهم وفى هذا إرهاق لميزانيتها ويسبب إلى فرض الضرائب الكثيرة وليس هناك أى أمل فى إزالة هذا النفور القديم والعداء المستحكم بين البيض والسود فى أمريكا على الرغم مما وصل إليه الأمريكيون من حضارة ورقى .

وفى إفريقيا الجنوبية لا تقل مشكلة البيض والسود فى خطورتها عن مثيلتها فى العالم الجديد ، وترتد أصولها إلى الوقت الذى بدأ فيه الهولنديون يستعمرون جنوبى أفريقيا منذ ثلاثة قرون تقريباً وكان يقطن هذا الجزء من القارة ، قبائل ، البانتو ، البشمان ، والهوتنتون فاضطرت تلك القبائل إلى الارتحال نحو الشمال تدريجيا بسبب ضغط البيض عليها . ثم أخذت القبائل تتكاثر على مر السنين كما صارت تزداد صلاتها رويدا رويدا بالمدن التى أنشأها البيض ، فلم يمض زمن طويل حتى ظهرت مشاكل عدة كان سببها أن اقلية من البيض

صار تستعمر اقليا تقطنه اكثرية من السود وتتحكم فى مصائر هذه الاكثرية ثم زادت خطورة هذه المشاكل عندما اشتد النزاع بين البوير البيض وهم أول من استعمر تلك الجهات وبين الإنكليز حينما ضموا إلى امبراطوريتهم افريقية الجنوبية . وكان للاعتبارات الاقتصادية شأن ظاهر فى اثارة هذا النزاع لأن البوير الذين يحترفون الزراعة ويربون المواشى كانوا قد درجوا على اقتناء الرقيق الاسود ليعمل فى مزارعهم . بينما الإنكليز يحاربون مبدأ الرق ويكافحون النخاسة وتجارة الرقيق وفضلا عن ذلك فان المرأ لا يسعه أن يترك موضوع الرق فى الولايات المتحدة الأمريكية وافريقيه الجنوبية دون أن يقرر حقيقة تاريخية هى أن العلاقة بين السود والبيض فى هذه الجهات ، كانت علاقة استغلال بلغ اقصى حدود السوء . استقلال البيض للسود الى جانب احتقارهم وازدرائهم وتضييق سبل العيش عليهم وازهاق أرواحهم .

فانه بعد أنزاع اكتشاف امريكا أخذت جموع المهاجرين الأوربيين تتدفق على القارة الجديدة من كل حدب وصوب وشرع هؤلاء يؤسسون المستعمرات التى اتسعت رقعتها سريعا فامتدت على طول الشاطىء الشرقى ، وتوغلت فى داخل البلاد وعندما احكم الإنكليز سيطرتهم على هذه ، الولايات ، الجديدة إزدادت المستعمرات اتساعا كبيرا وصحب هذا الاتساع ظهور الفوارق الجغرافية بين مختلف الولايات اذا كانت الجهات الشمالية اكثر موافقة لسكن المهاجرين الأوربيين بسبب مناخها الملائم لهم وكان هؤلاء يزرعون بها الحبوب ويربون

الاغنام أما الجهات الجنوبية فهى شديدة الحرارة اعتمد أهلها على زراعة الدخان والقطن والقصب وعلى ذلك فقد عمد المستعمرون فى الولايات الجنوبية الى تسخير السكان الاصلين أى الهنود الحمر وارهاقهم ارهاقا شديدا حتى كادوا يبيدونهم جميعا وعندئذ اضطروا الى جلب الزنوج من افريقيا للعمل فى مزارعهم الواسعة فتالفت شركات من الانكليز والهولنديين الذين استخدموا القناصة و « الخطافة » لصيد الزنوج ثم تألفت شركات ملاحة لحمل هؤلاء التعساء ونقلهم من افريقيا الى امريكا مقيدين بالسلاسل والاغلال وعلى الرغم من أن الدين المسيحى يحض على الرأفة فان هؤلاء السود لم يكونوا فى نظر المستعمر الأوربى سوى انعام واغنام يرمقونهم بعيون المهانة والاحتقار ولا يقيمون لحياتهم وزنا ومع أن موارد الثروة الامريكية تتوقف على ما يبذلون من جهد ونشاط فقد ظلوا منبوذين . ولو الغى الرق وقتذاك دفعة واحدة فى الجنوب لحدث انقلاب خطير فى حياة البلاد الاقتصادية .

وواقع الأمر أن هؤلاء الزنوج كانوا يعيشون فى عوز دائم وجهل مطبق لا يلقون من (أسيادهم) الأوربيين غير الازدراء والمهانة فلا يعيش الأسود بين الاوربيين عيشة الناس بل عيشة الدواب التى تكره طول حياتها على عمل مالا ينفعها . والأسود لا ينال من القوت والغطاء والراحة إلا ذلك القدر الضرورى الذى لا يستطيع بدونه الاستمرار على العمل . وهو إذا أراد أن يعيش من الأرض التى يشتغل عليها كان لزاما عليه أن يجيب كل مطالب الملاك . فان هجر الأرض واقبل على

العمل فى المصانع والمعامل وقع فى رق أغنياء آخرين من البيض يقوم بخدمتهم طول حياته ويمضى ساعات طويلة فى عمل آلى متجانس مضر بصحته متلف لحياته . وان هو استوطن الأرض وسد عوزه واكتسب من كده فان أحدا لن يتركه وشأنه بل سرعان ما يجد أنه مطالب بدفع الضرائب فاذا تأخر فى الدفع وسداد الضريبة خرجت الجنود لمحاربته حتى يجرح أو يقتل . . . أو يرغم إرغاما على العمل المرهق المستمر حتى تتحصل الحكومة منه على كل ما تريد وتطلب وهكذا على حد قول أحد الكتاب الانكليز : —

« يبتدىء عمل الرجل الأبيض من مطلع الشمس وينتهى

عند غروبها . أما الرجل الاسود فليس لعمله بداية ولا نهاية »

غير أن هذه المآسى ما كانت لتستمر طويلا دون أن يتحرك ضمير الانسانية ويتصدى المصلحون الاجتماعيون لمعاجلة مشكلة الزنوج والرق عموما .

ومن طريف ما قرأت فى هذا الموضوع ما كتبه أحد المفكرين الأحرار « شارلس برادلو » حيث يقول مامعناه أنه لم يلبث أن أتى دور تحرير العبيد من الرق بفضل كتابات الفلاسفة ونتيجة لتفكيرهم . فانى لا أعرف أن دينا من الأديان الذائعة حرم الرق فى الماضى ونهى عنه وقد ظل الدين المسيحى يؤيد العبودية حتى أن (كتاب العهد القديم)

صادق عليها بقوانين خاصة بها ولم يعلن (كتاب العهد الجديد) بطلانها ولم تبدأ حركة التحرير إلا فى الثلث الأخير من القرن الماضى ولا يستطيع مسيحى أن ينكر أن حركة أبطال الرق فى أمريكا الشمالية لقيت مقاومة عنيفة وعنادا مريرا من رجال الدين فى الولايات المختلفة وأن الانجيل ومنبر الوعظ ونفوذ الكنيسة كل أولئك يعضدون ملاك العبيد ويقاومون الغاء الرق .

لقد ظل العالم المسيحى يقتنص العبيد ويتجر بهم مدة ثمانمائة وألف سنة ولقد كان شارل الخامس أول عامل راجت على يده تجارة العبيد بين العالمين — القديم والجديد — ومنذ مائة سنة أو أقل كانت مدينتا برستول وليفربول المشهورتين بالورع والتقوى فى ذلك الوقت محطات مفتوحة للوارد والصادر من الرقيق حتى نمت ثروتهما واتسعت تجارتهما الادمية من البيض والسود على السواء . وفضلا عن ذلك فقد كان النصارى من اليونان فى القرن التاسع يبيعون الرقيق إلى العرب . وفى القرن الحادى عشر للميلاد كانت تباع العاهرات علنا بيع الرقيق فى أسواق مدينة روما وكان الربح المتحصل من بيعهن تستولى عليه الكنيسة . وعندها قام (وليم ويلبر فرس) يكافح فى سبيل أبطال الرق قال معاصروه أن مسيحيته مشبعة بروح الإلحاد لأنه كمطالب بالغاء الرق كان فى نظرهم لا يؤمن بما أتت به الكتب المقدسة . وذكر على وجه الخصوص سفر الخروج (الاصحاح الحادى عشر) وسفر اللاويين (الاصحاح الخامس

عشرة) فقد حدث يوم ١٨ فبراير سنه ١٧٩٦ أن وقف وليم بلرفورس فى مجلس العموم البريطانى يقول أن فرنسا الملحدة والتى انتشرت بها الفوضى (بسبب الثورة المشتعلة بها) قد قضت على الاسترقاق ومنحت الحرية للافريقيين بينما لاتزال انكلترا مبقية على الاسترقاق ومحتفظة بنظام يتسم بالقسوة والعنف ومن بقايا العصور البائدة . على أنه مانادى بلبرفورس بضرورة إبطال الرق حتى تبين له أن المحاكم الانجليزية وما لها من سلطان قضائى كبير ، ومحافل اللاهوت الأسقفية وما لها من نفوذ دينى شامل كانت جميعها متحفزه للوقوف ضده ومعارضته وتسفيه آرائه وأبدى جورج الثالث وهو الملك المتدين اشمئزازه الظاهر من هذه الجرأة : جرأة المطالبة بابطال الرق وفضلا عن ذلك فقد عارض مجلس اللوردات فى منح الحرية للعبيد المتاكيد .

ومنذ نيف وستين سنة قامت جمعيات التبشير المسيحية بالدعوة إلى الحرية بين عبيد (دمراره) وهى المستعمرة التى تحكمها دولة انكلترا المسيحية فلم يكن نصيب أعضاء هذه الجمعيات سوى المحاكمه أمام قضاة مسيحيين — عينتهم الحكومة الانكليزية فى هذه المناصب — وصدر الحكم على هؤلاء المبشرين بأنهم مجرمون عصاة جريرتهم التبشير بين العبيد بالعتق والحرية . وقد اتهم أحد المبشرين عند محاكمته فى (دمراره) أمام محكمة عسكرية مركبة من أفراد مسيحيين بأنه يحاول تحريض العبيد على كره أسيادهم ويبعث فى نفوسهم عدم الرضى ويشيع روح التمرد والتآمر والكراهية ضد أسيادهم الشرعيين ، فقضت المحكمة باعدام ذلك المبشر

المطالب بالغاء الرق : شنقاً وأن يظل معلقاً فى حبل المشنقة حتى تزهق روحه . وهؤلاء القضاة كانوا من أعضاء الكنيسة . أما المبشر البائس فكان من المطالبين بالاصلاح والمنادين بتحرير الجنس البشرى من العبودية .

وفى سنة ١٨٢٣ نشرت الجريدة الرسمية فى (دمراره) أمراً فيه ما نصه :

« نحن لانسمح لأى واعظ دينى بأن يعمل على تنوير أذهان عبيدنا »
« الذين هم ملك لنا باعتراف القانون إلا أتيح لهم فى الوقت نفسه أن »
« إستنارتهم ومسيحيتهم لا تمنع بتاتا من بقائهم عبيدا لنا أبد الدهر . »

تلك قصة محاولة إبطال الرق فى العالم الغربى المتحضر وفى الدنيا الجديدة . ثم فى تلك الأصقاع التى وصل إليها نفوذ المستعمرين البيض فى القارة الأفريقية . وهى قصة تختلف إختلافا كبيراً فى جوهرها وتفاصيلها عما يحدثنا به المعاصرون عن الرق وحال الرقيق عموماً فى مصر والسودان فى عهد محمد على باشا وخلفائه . وآية ذلك ما كتبه الدكتور مادن ممثل جماعة مكافحة الرق البريطانية الذى زار مصر فى أيام محمد على الكبير . فكان مما قاله : —

« أن حالة العبيد فى وادى النيل لتفضل حالتهم فى أى دولة مسيحية »
« بدرجة كبيرة ، وينسب فى العادة حسن معاملة العبيد فى البلاد الإسلامية »
« إلى سماحة الدين الإسلامى ذلك أن من تعاليمه الرحمة بالناس ومعاملة »

« العبيد بالحسنى واعتبارهم إخوانا لاسيادهم وإعتبار الأسياد مسئولين »
« عنهم أمام الله . »

ويؤيد هذا القول ما جاء فى خطاب لشقيقة المعاصر الانكليزى E . W . Lanes (لين) صاحب المؤلف المشهور عن عادات المصريين وأخلاقهم وطرق معاشهم أيام محمد على ، وقد زارت هذه السيدة مصر مع أخيها فقالت : —

« أن كثيرين ممن انتزعوا من أحضان أمهاتهم ورعاية آبائهم وهم »
« صغار يجدون عند من يشترونهم حنان الأم وشفقة الأب ويرفلون فى »
« ثياب غالية ويأكلون ما لذ وطاب فى بيوت أسيادهم ويتمتعون بحرية »
« يندهش لها الأنسان . »

والواقع أن الرق فى السودان أقرب وأدنى إلى الاصلاح منه إلى العبودية والسبب فى ذلك أن العبد الذى يدخل فى حوزة سيده لا يلبث حتى يصبح بعد مدة قصيرة من الموالى لأنه متى تعلم العربية وكيف يتوضأ ويصلى ويقرأ الفاتحة وينطق بالشهادتين ثبت إسلامه من المعروف إن الإسلام يحرم استعباد المسلم لاخيه المسلم ولا يفرق بين العربى والعجمى فى ذلك .

ومعظم زنوج السودان يعيشون على جانبي النيل الأبيض ويقطنون فى جبهات بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الزراف والسوباط والبيبور أحد روافد النهر الأخير وبحر العرب وصحراء الديوم الواقعة إلى الجنوب

الغربى عن مديرتى دارفور وبحر الغزال وهم من الفرتيت والبور والجلا والأنواك والدنكا والنوير والشلك والجاوير الخ .

وكانت الأساليب التى إتبعها محمد على باشا وخلفاؤه من بعده فى إبطال الرق تهدف إلى القضاء على الفوارق الجنسية وتعمل من أجل خلق وحده متماسكة من أبناء وادى النيل لحتمها المساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات فعمد أولا إلى تجنيد الدنكا والشلك فى سلك الجيش المصرى واستخدم منهم أعدادا عديدة فى شتى مصالح الحكومة ثم عمل على إعادتهم إلى بلادهم بعد تهذيبهم وتدريبهم حتى ينشروا ألوية الحضارة بين عشائرهم وهكذا أمكن بعد مضى حوالى ثلاثين سنة أن تألف من هاتين القبيلتين (الدنكا والشلك) مديرية فاشودة وقد أنعمت الحكومة المصرية على (كيكوم) مك أى «ملك الشلك» بالرتبة الثانية واستمر كيكوم مقيما على ولائه للحكم المصرى حتى قتله المهدى عند ما رافق كيكوم حملة راشد بك هيمن ضد أنصار المهدى وأتباعه ، وكذلك كان حال قبيلة الدنكا وهى نازلة على الضفة الشرقية من النيل الأبيض وإسم مكها (يول كور) وأكبر أولاده الحاج عيسى يول الذى هرب من ظلم الانجليز وقصد إلى مصر وبعد أن حضر إلى مصر ذهب إلى مكة لتأدية الحج وعاد بعد تأدية الفريضة ثم ألتحق بالوفد السودانى ممثلا لقبائل الجنوب تحت رياسة الأستاذ الكبير إسماعيل الأزهرى .

وحسنت حالة الشلك والدنكا فلبس أهلها الملابس وستروا عوراتهم وإشتهروا بصيد التمساح وفرس البحر (بالبادنجا) وهى آلة كحلب

المراكب ولكنها حادة الأطراف وقد تعلموا صناعات عديدة كصناعة الفخار ونسيج الدمور وصهر الحديد الخام وطرقه وصنعه حراباً ومزاريق وآلات حديدية للزراعة يتجرون بها بين قبائل الزنوج الأخرى وذلك كله بعد أن كان المرء منهم يهيم على وجهه فى الغابات لايدرى أين يذهب. تصادفه شجرة مثمرة فيأكل من ثمرها وينام تحت ظلها مثل الشلكاوى أو الدنكارى فى ذلك مثل أبناء القبائل الزنجية الأخرى — وعلاوة على ذلك فقد نشأوا على عادات مزرية تحط من شأن النوع الانسانى : أمثال ذلك أنه إذا مات أحدهم خلفه أكبر أولاده على زوجاته فاذا ولدت الزوجة منه ولداً دعاه أخاه لانه يعد نفسه وكيلا عن والده المتوفى ولاحق له فى نسله وذريته وهم ينامون على الرماد المتخلف من حريق روث البقر ويغسلون وجوههم بالبول ويمزجون به اللبن والمسلى ويأكلون الميتة ويشربون الدم والزنجى البدائى أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان وهو من الناحية الاقتصادية عامل إتلاف وإبادة وحسب . فلم يكن ينظر إلى أبعد مما يصل إليه نظره فلا يرى الأشياء إلا كما يراها الطفل ، فالشمس مخلوق حى ، وكذا الرياح والأمطار وغيرها ، والمرض تسببه الأرواح الشريرة التى تدخل الجسم — جسم المريض وتطرد الأرواح الطبيعية ، والأحلام هى وقائع حقيقية للنفس فى تجولها عند ما يكون الجسم نائماً ، ويظن الزنجى أن خياله فى الماء هو جزء منه ، ولذلك فأن الكثير منهم يحترسون عند ما يسيرون حذاء النهر من وقوع ظلهم على الماء ، خوفاً من أن يصل اليه التمساح ، فيسحبهم إلى النهر عن

طريق الظل ويأكلهم . . . وينظرون إلى أغلب الشرور كأنها فضائل . فالسرقة والقتل والنهب فى نظرهم رفعة ومجد . فقد يقتلون الملوك عند ما يتأخر المطر أو يكثر المرض والشيوخ عند ما يشح الغذاء . وقد يهجرون الأولاد أو يبيعونهم عند ما يكثرون ، فهم لا يعرفون الضمير ، ولا يعتقدون إلا بقانون أخلاقى واحد هو قانون الحق للأقوى ، محافظا على وجوده بحرب دائمة مع القبائل الأخرى ويعيش من اليد للفم ، حياته مملوءة بالأخطار والمجازفات ، يصطاد الحيوانات والأسماك ويقاتل ليعيش .

وكان الزنوج فى حالهم الأولى يخضعون لطائفة الرؤساء والسادة الذين أبى عليهم جهلهم وحماقتهم إلا أن يعيشوا فى إضطراب وفوضى دائماً لا يعرفون حياة الاستقرار والسكينة بل يشنون على بعضهم بعضاً حروباً شعواء تهلك بسببها مئات من أبناء قبائلهم ويقدمون أسراهم إلى (الجلابة) إلى جانب ما يقدمونه إلى هؤلاء من سلع فيأخذون بدلا منها مما لدى (الجلابة) من البضائع تروق لهم وتسد حاجاتهم كالتمر والسكر والدمور وقماش الجاوه الأحمر والبقر والخرز والودع والحراب وآلات الحفر والزراعة وكانت هذه تجارة رابحة تدر على الجلابين خيراً عظيما. وأسس هؤلاء فى الخرطوم شركات تجارية ربحت أموالا طائلة . وأنتهى الأمر بهؤلاء الجلابين أن اقتسمت شركاتهم مناطق النفوذ الواسعة فى أقاليم النيل الأعلى وبحر الغزال والسوباط خصوصاً ، يبنون فيها الزرائب ويجمعون فيها سن الفيل والعبيد وغير ذلك من السلع . ثم تألفت من الزرائب

الكبيرة المشايخ واستأثر الجلابون بكل نفوذ ، وأعتمدوا على البنادق والبارود في تأييد سلطتهم على الزنوج . وكان فى أثناء سطوة هؤلاء الجلابين أن انكمش نفوذ الحكومة حتى صار لا يتعدى قرية اللبسى على النيل الأبيض جنوباً وصارت الحالة تنذر بضياع كل هذه المناطق من حكومة الخرطوم وعلى ذلك فقد بدأت الحكومة تعمل لانتزاع هذه الزرائب والمشاريع من الجلابين . وقد صارت الحكومة فى تنفيذ هذه الخطة سيرا معتدلا حكيما فى أول الأمر بيد أنه ما أن حضر صموئيل بيكر وشارل جورج غردون حكاما على مديرية خط الأستواء حتى تبدل الحال ، وركب الاثنان متن الشطط فاعلنا فى مطاردة الجلابين ومصادرة الزرائب والمشاريع وإجلاء أصحابها عنها . فضلا عن ذلك فقد أبيح قتل الجلابين وإهدار دمهم وأسرف بيكر وغردون فى إتباع سياسة النار والسيف لإبادة تجار الرقيق حتى انتشر الذعر وعمت البلوى وذاعت هذه الأخبار المروعة بين أهل الجلابين وذويهم ونما خبر هذه « المعارك » إلى عصابات السطو وقطاع الطرق أمثال أبو مسيكه وخلافه فانضم هؤلاء الى الجلابين يشدون أزرهم فى هذا النضال المرير فبلغ عدد المقاتلين حوالى ٥٠ ألف رجل من الشجعان المغامرين ثم عقدوا إتفاقا مع سلطنة دارفور وكانت وقتذاك ما تزال دولة مستقلة ولم تدخل بعد فى حوزة الخديوية المصرية يدفعون بمقتضاها مكوسا معلومة لحكومتهم « دارفور » لقاء السماح لهم بالمرور فى بلادها عند سفرهم إلى أسيوط حيث يبيعون بضائعهم ثم يبتاعون بأثمانها ما يلزمهم من بنادق وبارود وقد

حاولت الحكومة المصرية منعهم فلم تنجح وخشيت أن ينجم من تشددها فى ضرورة إغلاق منافذ تجارتهم فى القاهرة وأسيوط أن تتحول هذه التجارة إلى طرابلس ومراكش .

ومما يجدر بنا ذكره أن الصفاء كان ما بين رؤساء الزنوج والجلابين موطدا ويقبل كلا الفريقين أخذ «الفدية» لانقاذ الأسرة من الموت ومن المعروف أن الزبير باشا افتدى خمسمائة عبداً امرد من ملك النيام كان محكوماً عليهم بالاعدام لجندهم الزبير ضمن جيشه الذى فتح به دارفور وعند ما أساء الانكليز إلى الزنوج وأوسعوهم جوراً وعسفاً اجتمع رؤساؤهم وقرروا إرسال وفد مؤلف من خمسة من أبناء ملوكهم وخمسة آخرين من الكجور « أى العلماء » حتى يذهبوا إلى الخرطوم ومنها إلى مصر فيرفعون هناك ظلامتهم إلى الخديوى على أنه ما وصل هذا الوفد إلى الخرطوم حتى قبض الانكليز عليهم وسجنوهم فى سجون الخرطوم فماتوا جميعاً من سوء المعاملة ونجا منهم واحد فقط هو ابن ملك غورغورو وقد لجأ إلى أسرة المرحوم يوسف باشا الشلالى فأكرمت الأسرة وفادته لما كان بين والده الملك وبين الباشا المذكور من متن الصداقة وصادق الود والولاء . وقد ظل ابن الملك غورغورو مقيما فى بيت الشلالى إلى وقت سقوط الخرطوم فأكرمه المهدى ورفع منزلته وما برح مقدما عنده حتى مات المهدى وخلفه عبد الله التعايشى فزاد فى إكرامه وأبقاه لديه بمثابة « ممثل » من قِبل ملوك خط الاستواء يفاوضه فى كل ما يلائم مصلحة الفريقين :

ومما هو جدير بالذكر وله دلالته البالغة أنه حدث فى سنة ١٩٢٧ أن طلبت عصبة الأمم من حكومة السودان بيانا وافيا بعدد الزنوج الذين حررتهم الحكومة وأولئك الذين كانوا لا يزالون حتى هذا الوقت فى ربقة العبودية والاسترقاق مع شرح حالة كلا الفريقين الاجتماعية والاقتصادية وشمرت الحكومة عن ساعد الجد لاعداد هذه البيانات ولكن سرعان ما تبين أن العبيد الذين لم يحصلوا على أوراق عتقهم وظلوا يعتبرون فى حكم القانون والعرف رقيقا ، وكان يجب كذلك أن تقدم به البيانات المطلوبة ، قد اندمجوا فى أسرات أسيادهم وأصبحوا من الموالى وتعذر على الحكومة أن تصدر لهم أوراق العتق وعلى ذلك فقد عمدت الحكومة إلى اعتبار « مرافيت » الجيش المصرى من الزنوج رقيقا محررا فاستحال الاحصاء المطلوب بيانا باعدادهم وأما هؤلاء « المرافيت » فكانت الحكومة قد أسكنتهم بعد تسريحهم من الجيش « حلالا » أى قرى معينة تعرف باسم الملكية كغرب الجاش فى كسلا وحلال كابوش فى سنار وحلال الديوم فى الخرطوم والديوم فى جوز رجب . وقد يكون من المفيد أن نذكر بمناسبة إقامة مرافيت الجيش فى الحلال التى اختارتها الحكومة لاقامتهم أن حكومته السودان الحالية ألغت النظم التى اتبعتها حكومة « التركية » السابقة ذلك بأن تلك الحكومة كانت تعيد المرافيت من العساكر إلى قبائلهم الأصلية حتى يشيعوا فيها المعرفة ويستطيع بفضل اندماجهم فى هذه القبائل أن يرشدوا أهلها إلى الهدى والنور وينقل أهل هذه العشائر عن الجنود « المرافيت » ما كسبه هؤلاء من خبرة تمكنهم

من السير رويداً رويداً فى طريق الحضارة والرق كما كان يحدث مع أبناء قبيلتى الدنكة والشلك ولكن حكومة السودان الحالية سرعان ما خالفت — متعمدة — هذا النظام فحرمت عودة أى عسكرى « مرفوت » إلى قبيلته بدعوى أنه عاشر فى حياته العسكرية « البونج » أى « ناس بحر » من سودانيين ومصريين ففسدت طباعه لدرجة صار يخشى منها على انتشار السوء والفساد بين أهل قبيلته ، وتلك دعوى باطلة لأن غرض الحكومة الحقيق — كما يعرف السودانيون وغيرهم ممن شهدوا وما زالوا يشهدون هذه الحوادث لم يكن سوى إثارة عوامل الحقد والبغضاء بين أهل البلاد والتفرقة بين مختلف الشعوب السودانية وآية ذلك أنها ألفت من هؤلاء المرافيت قوات من « الملشيا » تحت رئاسة الأميرالاى المرحوم السيد بك عبد الله فى شرق السودان والمرحوم الاميرالاى فرج بك أبو زيد فى كوستى وسنار — مهمتهما إذلال للقبائل العربية كقبائل كنانة والحمدة والبقارة كذا الهدندوى والحلانقة وبنى عامر والبجه عموما فى شرق السودان تحت ستار إنشاء رقابة فعالة على نشاط العرب محافظة على الأمن والسلام وفضلا عن ذلك فقد اتخذت الحكومة من هؤلاء « المرافيت » أداة طيعة تنشر بين « الرقيق » فى حوزة القبائل روح التمرد والعصيان

على أن الحكومة لم تشأ أن تكتفى بذكر إعداد هؤلاء المرافيت فى الاحصاء المطلوب وكانت أعدادهم محدودة فلجأت إلى وسيلة أخرى لاظهار مدى تقدمها ونشاطها فى هذه الناحية الانسانية — تحرير الرقيق — وعلى ذلك فقد عمدت إلى استخراج تذاكر حرية لكل الرقيق الذى كان مايزال

يعيش فى كنف أسياده من وقت المهدية فثار الأهالى بسبب ذلك واحتجوا على عمل الحكومة قائلين « إنه إذا نفذت الحكومة أمر إعطاء تذاكر الحرية لهؤلاء الرقيق فان دولاب العمل سوف يقف لا محالة ويترتب على ذلك عدم قدرتنا على دفع الضرائب فتتجدد من ثم تلك المأساة التى كان من نتائجها ثورة المهدى وعلى ذلك فقد اجتمع المفتشون بمديرى مديرياتهم واجتمع المديريون بأعضاء مجلس الحاكم العام فى الخرطوم وقرر الجميع إبطال تحرير التذاكر وإبقاء العبيد فى حوزة أسيادهم بالقوة إذا دعا الأمر وبالفعل لم تلبث أن وزعت جنود الهجانة والمشاة الراكبة على الحلال فضربوا نطاقا حولها وأعادوا العبيد إلى أسيادهم تحت إسم «عمال زراعة»

كلمة ختامية

ونرى قبل أن نختم هـذا الفصل أن نأتى على خلاصة وجيزة لأعمال النخاسة التى كان يقوم بها الانكليز فى إختطاف السود من أفريقيا ونقلهم عبر البحار ثم بيعهم كالأنعام الهمل للمستعمرين منهم فى جزر الهند الباسفيكية للاستعاضة بهم عن السكان الأصليين من سكان تلك الجزر والذين أبيدوا نتيجة الارهاق فى زراعة قصب السكر واللاستك وجوز الهند .

فن الحقائق المعينة أن الانكليز — والانكليز وحدهم — على حد قول السيد « رسل » فى كتابه (اللون والجنس والامبراطورية) « كانوا يختطفون الرقيق الأسود من أفريقيا وينقلونهم على مراكب انكليزية إلى منقطع العمران فى جزر الباسفيكى ليبيعهم للمستعمرات الانكليزية ، كما

تباع السلع العادية ، وكانت تجارة مربحة درّت الخيرات الوفيرة على تجار الرقيق من الانكليز والبرتغاليين . وأستمرت المراكب الانكليزية فى نقل الرقيق الأسود من افريقيا إلى جزر الهند الغربية وشمال أمريكا الانكليزية بمعدل ١٢٫٠٠٠ عبد فى السنة وقد ازداد هذا القدر حتى بلغ ٢٥٫٠٠٠ سنويا . وهكذا ظل الحال والانكليز يخطفون الرقيق ويلقونه فى كهوف مظلمة من قعور المراكب من أواسط القرن السادس عشر حتى القرن الذى انتهت فيه سنة ١٧٧٦ حيث قدر عدد ما اختطف من العبيد : ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ هلك خمس هذا العدد أثناء الترحيل وقذف به فى البحر طعاماً للأسماك وأبيد الربع نتيجة سوء المعاملة أو نتيجة نوع آخر من أنواع الأبادة كما قيل فى البرلمان الانكليزى حينذاك .

وفى سنة ١٨٢٣ أعلن مجلس العموم الكف عن الاسترقاق ، ولكن ذوى الشأن من حكام المستعمرات إستخفوا بهذا العطف وتعاموا عن تنفيذه كأنهم كانوا فى حاجة إلى رؤية ثورة يقوم بها العبيد توقظهم لرؤية البركان الذى كانوا يقفون فوق فوهته . وفى النهاية تم ألغاء الاسترقاق وتقرر صرف تعويض قدره ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه لملاك العبيد فى «الكاب» و «جزر الهند الغربية» و «مرتوس» وقدر أن هذا المبلغ يعادل نصف ثمن الرقيق المعتوق .

وسرعان ما فطن أسياد الرقيق إلى طريقة فذة للاستعاضة وهى الاستعباد المالى فتسارعوا إلى الاستيلاء على الأراضى الزراعية . وحتى

إذا ما امتلكت الأرض كافة . أعطيت قطع صغيرة للعبيد بالايجارات الثقيلة وحل امتلاك الأرض وتأجيرها بالطرق الحديثة محل العبودية القديمة وهكذا أبطل الانكليز طريقة امتلاك الرق بالاغتصاب واستعاضوا عنها برق إختيارى أقوى من الرق القديم دعامة وأكثر اشتمالا على عدد المستعبدين .

وإذا عنيت أيها القارىء الكريم بتتبع أطوار السود فى جميكا وجزر الباسفيكى وأمريكا لوجدت أقواماً لاقوا من العسف والاضطهاد ما لم يكن له مثيل فى أسيا أو أفريقيا . فحكاياتهم مترعه بشتى مناحى العواطف: من يأس إلى يقين ، ومن جهاد إلى إستسلام ، ومن شجاعة إلى استكانة، ومن تشاؤم إلى تفاؤل . ومن يقين وصبر . إلى شك وجزع وامل، فهم قوم قاوموا أشد صنوف البأس ، وأقسى مصاعب العبودية ، قوم مرت عليهم من الدهر حقبات سود قاحلة موحشة ، لم يكن لهم من سلوى سوى حفلات المآتم : فهم يودعون موتاهم ويستلهمون مصائرهم ويصفون فيها رجائهم بالحرية التى تنتظرهم فى أوطانهم بعد الممات ! ! ! فاذا ناح الزنجى شرح لك كيف عانى فى كنف أقوام بيض البشرة شقر الوجوه . هو عنهم الغريب المنبوذ . عوائد ومشارب تختلف فى كل ناحية عن عاداته . ثم يصف مآسيه وآماله ، وصبره وإيمانه ، وثقته ويقينه ، وحرية مستقبله فى دار الخلد ! ! ! هناك يجتمع بأمه وكوخه وثوره وأبقاره — وهناك يمسك ذنب ثوره المختار الذى ولد معه فى يوم واحد ويطلقه فى الغابة

ويغني وراؤه ثم يقبله من غرته ويقول له : « أنت أخي وقريني وتمام مزاجي وكيفي » .....

وتتجلى خصائص الزنجي في تعبيراته . عند ما يجلس القرفصاء بين الباكين أثناء رقصات الموت وينوح قائلا : لقدانهكني العذاب والتعذيب يا أمي ! انهكني حتى الموت ، ولكن الموت ما كان أضعف مني ساعة، مثله في هذه الساعة . فانا . ها أنا ذا اليوم بين ذراعيك . وها أنت ذا بين ذراعي . أعناقنا عناق الراح بالماء . والنور للعين ، والحلم للمنام . فما أحب هذا اليوم إلى قلبي وأشهاه ، لا يهو لك يا أمي عياء في مفاصلي . وضباب في عيني ، وذهول على وجهي . فما أذكر . وهل الزمان يذكر . كم فلك قطعت . وكم من السنين طويت قبل أن أدرك هذا اليوم ، يوم لقائنا ... وإني وإن غاب عني الكثير مما كان مني ومنك ، ما نسيت يوم أدركني فيه الرجل وهو يطاردني وكان ممتطيا جوادا له أربعة أرجل يسابق به الريح ، بينما كنت في بطن الوادي . والجوع قد هد حيلي وكاد يجفف أمعائي . فلما أعياني الطراد . تلكأت . فما كان من الرجل الأبيض إلا أن سدد بندقيته إلى ساقي وصاح : خذها يا أبغض الناس وعدو الكنيسة . فسقطت ولما إقترب مني طعنته بحربتي في ساقه أيضاً ، وسال منه الدم ، كما سال مني الدم ، ولكن آه يا أماه ، بندقية الرجل الأبيض فتاكة تقرب له البعيد ، وتطيع له العاصي . وما مثل حربتي بالنسبه لبندقيته إلا كمثل البيضة والحجر . . . كان مع الرجل الأبيض رجل أبيض آخر . تعاونا على اكتافي ثم أحضرت ولا أدري كيف أحضرت . وعشت ولا أدري

كيف عشت فوق أرض ليست بأرضى ، وتحت سماء ليست بسمائى . ومهما أصابنى من الشقاء فلا زالت تلك الساعة ـ ساعة إختطاف ، حية فى فكرى ، أما فى قلبى فكره للانكليز قتال ، وعداوة لا تنام ... فهو سبب شقائى وبعدى وبلائى ، وعذابى وتعذيبى .

كلما مرضت كلما بدت منابت الأمل فى نفسى ، وأخذ خيال السعادة يحيطنى ، فأرى بعين البصيرة وجهك الصبوح . وعينيك الصافيتين ، وأرانى أقضم من خيرات بلادى كالجراد . ولم يكن شىء فى الوجود يعادل مسرتى حينما أحضر مواكب الموت ، فأنوح وأرتاح فى البكاء والنحيب . ماذا يضير الأسود لو انتحر ومات ، إن طريق البغضاء كثيف ، مملوء بالعظم الرميم والجماجم المهشمة ، وعلى قارعة الطريق أشلاء هى فريسة الكره والحقد ـ كره الأبيض للأسود . والأسود للأبيض ، لن نغفر لاولئك الذين أساؤا الينا وأذاقونا مر العذاب . . . ورموا بنا بعيداً ـ بعيداً عن الأوطان ونبذونا نبذ الذباب ثم يلتفت للمعزبين ويقول : إخوان الشقاء : دعوا خيالكم يمرح حيث شاء ، ويدور معتليا الآفاق مع العواصف . ويتدفق مع المياه الجارية ، ويصفر مع الريح العاتية ، دعوه يتحد مع الأغصان المتمايلة ، ويقتحم الغابات الكثيفة . أتركوه يتلألأ مع قوس قزح ، ويتلاشى مع الغيوم الساريه . لتغنى نفوسكم وتتدفق الأبدية خلال أرواحكم ، لكى يغمركم رضى الله : ،

الفصل الخامس

سيرة الزبير باشا رحمه

« نشأة الزبير باشا . ممارسته للتجارة . مشاركته لأبي عموري المصري . فتح بحر الغزال وداوفور . استدعاء الخديوي له ، عودته للسودان ـ شجاعته الممتازة »

الزبير باشا رحمه من قبيلة الجيعاب ، نسبة إلى جميع العباسي ، وهي قبيلة مشهورة بالشجاعة والكرم والإقدام شأنها شأن عرب السودان الذين بزوا في هذه الصفات في سائر الاقوام. وللزبير مكانة كبيرة في تاريخ السودان الحديث بدأ حياته بالتجارة ثم سافر في سنة ١٨٥٦ مع ابن عمه إلى بحر الغزال في خدمة على أبو عموري وكان من تجار أصحاب المشارع وأصله من نجع حمادي وكان كثيرون من التجار السودانيين والمصريين يمتلكون الزرائب في هذه الأصقاع ، وأشتهر الزبير بالشجاعة والإقدام بفضل دفاعه عن زريبة على أبو عموري فهابه الأهالي وتمتع بسمعة عظيمة فما لبث حتى أنشأ لنفسه تجارة ناجحة درت عليه أرباحاً طائلة فزاد طمعه وتوغل في البلاد حتى وصل إلى بلاد لم يصلها غيره من التجار ثم قصد إلى بلاد النيام حيث تزوج من ابنة سلطان النيام وأسمه ، تكمه ، فارتفع

شأنه وازدهرت تجارته وابتاع من ملك النمايم خمسمائة من الشبان الأشداء دربهم على حمل السلاح وكان هؤلاء الشبان من الذين حكم عليهم بالموت ومن المتوقع أن يذبحهم القوم ويأكلون لحومهم جريا على عادة اهل البلاد . غير أن ملك النمايم سرعان ماصار يخشى من شدة بأس الزبير وازدياد سطوته فاضطر الزبير إلى الخروج إلى ملك آخر يدعى « دويه » كان عدوا للملك « تكمه » فأرسل حموه رجالا للفتك به فى الطريق فتغلب عليهم الزبير وأعاد « تكمه » الكرة فجهز جيشا كبيرا لقتال « دويه » ففر دويه وقومه وأرغم الزبير على الالتجاء إلى بلاد « قولو » وملكها يومئذ «عدوه شكو» وكان هذا الملك الأخير قد قتل أخا للزبير قبل ذلك فقامت الحرب بينهما وكانت الغلبة فى النهاية للزبير فقتل أولا عدوه شكو وبعد معارك أخرى مع ابن « عدوه شكو » الذى خلف أبيه واحتل « باية » عاصمة القولو واتخذها عاصمة لملكه وسماها « ديم الزبير » ثم عاهد عرب الرزيقات على فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردفان .

وفى سنة ١٨٦٩ وصل إلى بحر الغزال الحاج محمد البلالى المغربى ومعه مائتين من الجنود السودانين بقيادة محمد افندى منيب واربعمائة من الباشبزق وستمائة من الخطربة فقاتلهم الزبير وانتصر عليهم وكان حكمدار السودان وقت ذاك جعفر باشا مظهر .

ولما رأى ملك النمانم اتساع ملك الزبير أرسل يهدده ويطلب منه ترك الملك والسلطان ويعود إلى الاشتغال بالتجارة بحجة أنه جلابى فأبى

الزبير وعلى ذلك فقد اشتعلت الحرب بينهما وانتهى الأمر بانتصار الزبير فضم إلى ملكه بلاد التمانم وكان الرزيقات فى هذه الاثناء قد نقضوا العهد وقطعوا طريق «شكا» وهو طريق التجارة بين ممتلكات الزبير فى بحر الغزال وبين كردفان والسودان الأوسط فطلب الزبير فى عام ١٨٧٣ من ابراهيم سلطان دارفور وكان الرزيقات يدينون له بالطاعة أن يعاونه على اخضاعهم فبعث إليه برسالة اختتمها بقوله « ونحن نتقدم إليكم بهذا الكتاب واثقين أنكم متى علمتم حال هؤلاء العربان — الطغاه الذين خرجوا عن طاعة سلطتكم منذ ثلاثين سنة ونيف تنجدونا بسرية من جيشكم حتى إذا ما تم لنا إذلالهم نعود فنسوى الأمر بيننا فإما أن تتركوهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وإما أن نتركهم لكم فتفتحون الطريق وتقدمون لنا النفقات التى نبذلها على عساكرنا فى الحملة عليهم » ولما لم يجب السلطان ابراهيم على هذا الكتاب واستمر الرزيقات على فعالهم . فقد حاربهم الزبير وهزمهم شر هزيمة ، وأسر فقيههم عبد الله التعايشى وصمم على قتله ولم ينج عبد الله من القتل إلا بفضل وساطة المشايخ الذين منعوا الزبير من قتله وعبد الله هذا هو الذى صار فيما بعد خليفة للمهدى وحكم السودان ستة عشر سنة وهو رجل شجاع وجرىء وطموح ومغامر ومكافح ومشهور بالدهاء ولولاه لما حدث للمهدى من ظهور ولما كانت المهدية .

وترتب على انتصار الزبير وهزيمة الرزيقات ثم دخوله « شكا » أن

توترت العلاقات بينه وبين السلطان ابرهيم لأن دارفور كانت تعد هذه الجهات من أملاكها وعول ابراهيم على الانتقام من هذه الهزيمة وطرد الزبير من شكا. فبادر الزبير بتقديم كل البلاد التى فتحها فى بحر الغزال وشكا إلى الحكومة الخديوية المصرية، وطلب من الحكمدار اسماعيل أيوب باشا أن يرسل من قبله حاكما عليها باسم خديوى مصر. فأنعم عليه الخديوى برتبه البكوية وعينه حاكما على بحر الغزال وتم الاتفاق بعد ذلك على فتح دارفور ذاتها على أن يسير اسماعيل أيوب بجيشه على هذه السلطنة جهة الشرق بينما يزحف الزبير عليها بجنده من جهة الجنوب. وسقطت دارفور فى قبضة الحكومة المصرية وأنعم على الزبير برتبه الباشوية بيد أن تدخل الزبير فى شئون الفتوح الجديدة لم يلبث أن غيّر عليه اسماعيل أيوب باشا ثم تطايرت الاشاعات بأن الزبير كان يهدف إلى الاستقلال بالبلاد التى عين حاكما عليها فوجد أن من الخير له أن يحضر إلى مصر لمقابلة الخديوى شخصيا حتى يعرض على سموه « حقيقة الحال » — على حد قول الزبير والنظر معه ومع رجال حكومته فى تنظيم البلاد التى تم فتحها على يده والبلاد التى يمكن إلحاقها بحكومة الخديوى فى المستقبل لجاءه تلغراف من مصر بالموافقة على سفره.

ومع ذلك فقد نصحه رجاله بعدم السفر إلى مصر قائلين « إذا أنت سافرت إلى مصر حجزوك هناك ومنعوك من المجىء » فلم يسمع لنصحهم وقام من الفاشر بين مظاهر الإجلال والاكرام فنصبت له أقواس النصر فى كل بلد نزل فيها من الفاشر إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى القاهرة

واستقبل بالحفاوة والتهليل فى كل مكان وأطلقت له المدافع فى الخرطوم وفى القاهرة لوصفه من الغزاة الفاتحين ، وقد حدث ما كان يتوقعه أهله ورجاله فاحتجزه الخديوى فى مصر تحت ضغط الانكليز .

وفى سنة ١٨٧٧ رافق الجيش المصرى الذى أرسله الخديوى اسماعيل لنجدة الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا وأظهر فى الميدان من ضروب الشجاعة ما كان موضع التقدير والإعجاب وقد ظل الزبير على ولائه للحكومة على الرغم من قتل ابنه سليمان غدرا فى سنة ١٨٧٩ على يد «جسى» الإيطالى على نحو ما تقدم بيانه .

وفى سنة ١٨٨٣ انتدب لقتال عثمان دقنه فى طوكر فشمر الزبير عن عن ساعد الجد وجمع آلافاً من العساكر فى مصر ولكنه عدل عن الذهاب فى آخر الأمر لأنه أبى أن يكون تحت إمرة باكر باشا الانكليزى . وفى سنة ١٨٨٤ استنجد به غردون لاستلام السودان على الرغم من أن الانكليز كانوا قد أهانوه بوصفه «نخاسا» وشنعوا به وفضلا عن ذلك فقد عارض الرأى العام الانكليزى معارضة شديدة فى ذهابه إلى السودان بسبب تلك الحملة الشعواء التى آثارها ضده جمعية إبطال الرق فى لندن . وفى سنة ١٨٨٥ نفى الزبير إلى جبل طارق بتهمة أنه كان يتفاوض سرا مع المهدى فظل هناك ثلاثين شهرا ثم أفرج عنه وعنيت له الحكومة المصرية راتباً شهريا قدره ٢٨٩ جنيها يتناوله حتى وفاته وينقل لذريته من بعده .

وبعد استرجاع السودان أذن الانكليز للزبير باشا بالعودة إليه فبادر احمد افندى حمدى سيف النصر « الفريق احمد حمدى سيف النصر باشا » باستضافته فى منزله الخاص وهو قصر عظيم بجهة أبو روف على البحر الأعظم فى أم درمان فسر الزبير باشا سروراً عظيما بهذا الاكرام وكان حمدى افندى وقتذاك مأمورا لمدينة أم درمان وله النفوذ والسلطان وكان أهل السودان فى ذلك الحين أشبه ما يكونون بالمريض الذى تجاوز الخطر وبدأ يسترد عافيته رويداً رويدا وذلك بعد مانزل بهم من محن وشرور على يد حكومة الدراويش فقدم حمدى افندى الممكن والمستحيل من الخدمات لحفظ مكانة الزبير باشا فى أعين قومه مما حببه إلى قلوب السودانيين وجعل ألسنتهم تلهج بالشكر والثناء عليه حتى أن الزبير باشا نفسه خاطبه ذات مرة « بزجل » سودانى مازال القوم هناك يرددونه إلى يومنا هذا فى شتى المناسبات :

« أنت ياحمدى رفيق وتمام كيفى »
« ودرجة عصاى وبلاى وسيفى »
« مطمورة غلاى مونة خربفى وصيفى »
« ستارعيوبى عندنساى وجارى وضيفى »

والزبير باشا رجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب للخير ، أخ للقوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضيع وصاحب للشريف . فهو للسيف وللضيف ، عصا وكرباج « على حد قول أهل السودان » أى رجل حرب وكرم وظرف وشده وكان الزبير باشا يميل إلى المرح والفكاهة الى جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة البأس

سأله حمدي افندي سيف النصر ذات مرة عما كان يتنابه من هموم وهو أسير فى جبل طارق فأجابه : كنت « أدوبى » أى أغنى بغناء السودان وأخاطب أعضاء جسمي لأن الحراس لا يفهمون لغتى وأنا أجهل لغتهم أيضا فكنت أقول :

« كم يا الساق أخلفناك فوق بشاريه »

« وكم يا اليد جلدنا بك جَنَى الوحشية »

« وكم يا الفم أطعمناك مراره وشَبّه »

« ستين نموت أصل العمر عاريه »

وقيل أن الزبير باشا دخل مرة على مدير الخرطوم « استانتن باشا » فلم يحفل بقدومه كما يجب فما كان من الزبير إلا أنه نهره قائلا إننى لست بالرجل الذى لا تعيره أهمية لقد فتحت بلادا مساحتها أضعاف جزيرتكم فكيف لاتحفل بى وتقدم لى ما يجب من الاحترام . فأدرك استانتن خطأه وقدم اعتذاره وقد عرف الزبير بالشجاعة والمروءة إلى جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة البأس والجرأة والاقدام. فالشجاعة هى التى دفعته إلى مجاهل ما وراء المستنقعات وجعلته يكتشف مديرية بحر الغزال ويمتلكها ، والشجاعة هى التى دفعته لركوب الأخطار فى محاربة الرزيقات أشد القبائل بأسا فى الغرب ثم افتتاح سلطنة دار فور . وكان للزبير باشا سيف ثمين يعتز به ويصطحبه فى غدواته وروحاته فلما مات وقع هذا السيف فى يد المرحوم «الشريف يوسف الهندى» فاعتز به

وحفظه عنده كتذكار ثمين لا يقدر بمال لما كان لصاحبه الزبير من المنزلة الممتازة والقدر العظيم وكان الشريف يوسف الهندى أكبر الزعماء مقاما عندما أعيد فتح السودان وقد ظل يقيم فى سنار حتى سنة ١٩٠٨ ولكن الانكليز بدأوا يشكون فى اخلاصه بعد واقعة الكتفيه بسبب ايوائه لفلول انصار واد حبوبه عندما كان فى سنار فدعوه للاقامة فى الخرطوم ولولا مكانته الروحية التى تبلغ حد التقديس فى نفوس انصاره ومريديه من قبائل العرب لمثلت به الحكومة كما ضيقت الخناق على غيره من الزعماء والفقهاء الدينيين امثال الشيخ محمد التوم طلحه وغيره من الذين لجأوا إلى مكة وماتوا بها .

وكان من اظهر صفات الزبير باشا رحمه الكرم والنجدة وحب الجاه والسلطة فوصفه كتّاب الافرنج بأنه رجل تجارة وسياسة وحرب . وقال بعضهم بأنه خلق لحكم الناس وقد اشتهر بالكرم منذ كان ملكا فى بحر الغزال حيث يقصده الكثيرون من اهل البيوتات السودانية الذين اخنى عليهم الدهر فيعمل على تيسير الحال لهم وازالة الضيق والكرب عنهم وقد تردد فى بعض المجالس المبالغ التى انجد فيها قومه فبلغ مجموعها نحو من مائتى الف جنيه وبقيت داره مفتوحة يقصدها كل من خانه الدهر او عبس الحظ فى وجهه حتى انتقل الى رحمة الله سنة ١٩١٤ ودفن فى الجيلى . ومن المؤلم حتما بل من الخطأ الفاحش هو أن لا ننظر الى الزبير باشا نظرة اكبار وتمجيد مع أن تاريخ حياته مفعم بالبطولة ويا حبذا لو عنيت الشبيبة المصرية والسودانية بشأن هذا الرجل العظيم واظهار مدفنه بما يليق به من الكرامة والتقدير .

الفصل السادس

سيرة الامام محمد احمد المهدى

نشأة المهدى . ميلة للطريقة السمانية وتمجيده . اتصاله بالشيخ القرشي . اتصال عبد الله التعايشى به . تجواله فى البلاد . اتصاله بتجار الرقيق وتأييد هؤلاء لدعوته . ادعاؤه المهدية

ولد محمد احمد المهدى فى جزيرة ضرار من أعمال دنجله « دنقله » حوالى عام سنة ١٨٤٣ واسم أبيه «عبد الله» وأمه « زينب » وهو من ذرية رجل صالح يسمى « الحاج الشريف اشتهر بالتقوى ويتصل نسبه إلى جدٍّ له اسمه «نجم الدين» وهو جد الكنوز وينتسب إلى أهل البيت. وسيدى نجم الدين هذا مدفون فى القاهرة فى حى يسمى باسمه يقع بين « سبيل أم عباس بالعباسية وباب النصر » وله قبة فوق ضريحه ومسجد وأملاك موقوفة عليه يدخل فى نطاقها مدرسة الطائفة الاسرائيلية ومصنع الطرابيش ومصلحة النقل الميكانيكى «جراج الحكومة» وفابريقة الألوان المصرية لليب نسيم الكيمائى المعروف ومطبعة الحلبى ومصانع أخرى وعدة منازل للسكنى وأرض فضاء وكل ذلك أوقاف يرعاها الآن عبد الرءوف افندى عرفات الحسينى بموجب وراثته بهـــذه الأوقاف وتعيينه ناظرا عليها.

ومحمد احمد المهدى قبل ادعائه المهدية كان طالب علم انخرط فى عداد تلاميذ الشيخ محمد شريف ولكنه عاب فى استاذه وتطاول عليه فاتخذ الأستاذ ذلك ذريعة لمحواسمه من بين أتباع الطريقة السمانية وقال له الاستاذ محمد شريف اذهب فقد صدق فيك المثل القائل « الدنقلاوى شيطان مجلد بجلد إنسان » .

وكان الامام محمد احمد يحب الطريقة السمانية المذكورة وأصولها وكان له خلفاء وتلامذة يلقّنون أورادها ويقرؤون روايتها فلم يكن ترك هذه الطريقة واتباع غيرها أمرا يسهل عليه قبوله فتذلل لأستاذه محمد شريف وطلب منه العفو مرارا فلم يجبه إلى طلبه .

وكان فى « الحلوبيين » بين المسلمية والكاملين — على النيل الأزرق وشيخ من مشايخ هذه الطريقة يدعى « الشيخ القرشى » الذى أخذ الطريقة السمانية رأسا من مؤسسها « الشيخ الطيب » ، وكان بينه وبين الشيخ محمد شريف مناظرة شديدة . فلما رأى محمد أحمد من أستاذه هذا الاباء التجأ إلى « الشيخ القرشى » وجدد عليه العهد لهذه الطريقة .

أذاع الامام محمد احمد أنه انفصل عن شيخه « محمد شريف » لما رآه من مخالفة الشريعة والسنة وكان محمد احمد قد احتفر لسكناه غاراً فى جزيرة أبا أقام فيه وقضى وقته فى الصلاة والصيام وقراءة القرآن والتهجد والمناجاة والبكاء فى الأسحار والتضرع إلى سر الأسرار والتوسل إلى الله أن يهدى القلوب إلى اكتشاف الموعود ويصل إلى رؤية الحبيب المحبوب ومطالعة أنوار المقصود .

فاشتهر بالزهد والتقشف والغيرة الدينية وانتشر صيته فى السودان فأخذ الناس يفدون إليه من الجهات الأربع وكان المسافرون فى النيل الأبيض يقفون بالمراكب والوابورات — خصوصا الجلابة أى (ناس بحاره) فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون منه البركة فيباركهم ويوزع الهدايا والعطايا على الفقراء زهدا منه وتقشفا .

وفى سنة ١٨٨١ توفى الشيخ القرشى، فخرج هو وأتباعه وتلامذته إلى الحلوبيين وبنى فوق قبر الشيخ قبة — فانضم إليه أتباع القرشى واتخذوه بعد وفاة شيخهم شيخا عليهم فقويت شوكته وكثر أنصاره وقد بالغوا فى محبته وتعظيمه حتى قالوا فى كتب طريقتهم أن المهدى المنتظر سيكون منهم وأن الشيخ القرشى قبل وفاته أومأ بها إلى محمد احمد .

وكان من عادة الامام محمد احمد أن يخرج من جزيرته (أبا) سائحا فى بعض أصحابه لارشاد الناس حتى يقلعوا عن المعاصى وإنذارهم بما سيلقونه من عذاب إذاهم استمروا على مخالفة تعاليم الاسلام . واستطاع محمد احمد أن يجول فى أنحاء البلاد من دنقله شمالا إلى سنار جنوبا ومن النيل الأزرق شرقا إلى كردفان غربا وكان أهم مااسترعى نظره ماشهده بعينه من موجدة الناس على الحكومة وحنينهم إلى الماضى . ماضيهم القريب — قبل أن يفدعليهم صموئيل بيكرواتباعه وغردون ومساعدوه وقبل أن يتحكم فيهم أعداء الدين — كما يقولون — وقبل أن يصادروهم فى أخص خصائصهم الدنيوية والدينية وكان محمد احمد يواسى أهل القتلى من الجلابيين ويترحم على الموتى من ذوى قرباهم ويحضر مناجاتهم ويعدهم بالفرج القريب والخلاص من الكرب العظيم والعذاب المقيم —

ولما كان الناس بدورهم يمنون النفس بظهور المهدى الموعود وكانوا كلما رأوا رجلا يفضلهم عقلا ودراية غيوراً على الدين وأهله ظنوه المهدى . فإنهم سرعان ماصاروا يلهجون بأن الفقية محمد احمد هو نفسه المهدى المنتظر . وأما محمد احمد فقد رأى فيما كان عليه الأهلون من استعداد لقبول دعوى المهدية وتلك الحال التى وصل إليها الاسلام من الضعف والوهن حتى صار الكفار يستعبدون المسلمين ويصادرون أموالهم وأرزاقهم تحت ستار أبطال الرق ومكافحة النخاسة . نقول أنه رأى فى ذلك كله مشجعاً له على الجهر بدعوته ، علاوة على ذلك فقد كانت نفسه مفطورة على التشيع لمذهب الشيعة الذى يعتقد بغيبة الامام الحسن العسكرى فاندفع بحكم الضرورة والطبع بنشر دعوته ويهيء الأذهان لقبول المهدية وتأييدها عند ظهورها وكان فى هذه الأثناء أن وفد عليه رجل من الغرب هو عبد الله التعايشى كانت له اليد الطولى فى ظهور المهدية وانتشارها ذلك بأن التعايشى كان أول من ناصر محمد احمد وأيد دعواه وآزره وقواه برجاله الأشداء وبدهائه وسعة حيلته ولولا عبد الله التعايشى لما قامت للمهدية قائمة ولما استمرت بعد وفاة المهدى نفسه ستة عشر سنة . قيل أن عبد الله التعايشى عندما رأى محمد احمد لأول مرة وقع مغشياً عليه ولم يفق من غشيته إلا بعد ساعة أو أكثر ، ولما أفاق عاد فنظر إلى الامام محمد احمد وتقدم لمصافحته فأغمى عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقدم إلى محمد احمد حبوا على الأرض فأخذ يده وشرع يقبلها وهو يرتعد ويبكى . فقال له محمد احمد : « من أنت يارجل وما شأنك ؟ » قال يا سيدى

أنا عبد الله بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة (رعاة البقر) وقد سمعت بصلاحك فى بلاد الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك . وكان لى أب صالح — من أهل الكشف وقد قال لى قبل وفاته إنك ستقابل المهدى المنتظر وتكون وزيره ومكمن سره وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته . فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى بها والدى بعينها فابتهج قلبي لرؤية مهدى الله وخليفة رسوله ومن شدة الفرح الذى شملنى « أصابنى الذى رأيته » .

فاستبشر محمد احمد بهذا القول لأنه أصاب هوى فى نفسه ويتفق مع ما كان يضمره . فبايع عبدالله التعايش وقربه إليه وجد فى بناء قبة الشيخ القرشى فأتمها وعاد بتلاميذه ومعهم عبد الله التعايشى إلى جزيرة « أبا » .

وما أن عاد إلى « أبا » حتى شرع فى دعوة الناس سرا بإرسال الكتب إليهم وذلك فى ٢٩ يونيه سنة ١٨٨١ وكان أول من خاطب فى ذلك الأخصاء من الفقها. والأعيان ومشايخ الطرق والقبائل فأفصح عن دعواه وخرج بها وصار يحثهم على القيام معه لنصرة الدين والهجرة من أماكنهم للانضمام إليه ومبايعته على الجهاد فى سبيل الله قائلا :—

« إنه قد رأى النبى (صلعم) بعينى رأسه يقظة فاجلسه على كرسيه »
« وقلده سيفه وغسل قلبه بيده وملأه إيمانا وحكمه ومعارف منيعة وأخبره »
« بأنه الخليفة الأكبر والمهدى المنتظر وأن من شك فى مهديته فقد كفر »
« ومن حاربه خذل فى الدارين »

وقال فى بعض كتبه

« إنى لا أعلم بهذا الأمر حتى هجم علىّ من الله ورسوله من غير »
« استحقاق فأمره مطاع وهو يفعل مايشاء ويختار وقد أمرنى سيد »
« الوجود (صلعم) بمكاتبة جميع المسلمين ودعوتهم إلى الهجرة »
« معنا إلى محل يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين « فلابدأن »
« تحضروا معنا فى رمضان ولا تتخلفوا فيحل بكم الخسران »
« وجاء فى بعض كتبه :—

« لقد خلّفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا »
« بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدنى الله »
« تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من عهد آدم إلى زماننا »
« هذا وكذلك المؤمنون من الجن . وفى ساعة الحرب يحضر معهم أمام »
« جيش سيد الوجود (صلعم) بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة »
« والأقطاب والخضر عليه السلام وأعطانى سيف النصر من حضرته »
« (صلعم) وأعلمت أن لا ينصر علىّ معه أحد ولو كان الثقلين الانس »
« والجن . ثم أخبرنى سيد الوجود (صلعم) بأن الله جعل لك على »
« المهدية علامة وهى الخال على خدى الأيمن وكذلك جعل لى علامة »
« أخرى تخرج رايه من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل »
« عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى . وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا »
« يلقانى أحد بعداوة إلا خذله الله . الخ الخ الخ »

ولما رأى محمد احمد أن الناس على استعداد لقبول دعوته أعلن أنه المهدى المنتظر وأعلن الجهاد وصمد فى دعوته وصار لايثنيه عن عزمه وعيد ولايخيفه تهديد .

ويعتقد أهل السودان وفقهاؤهم أن محمد احمدما كان يقدم على إعلان أنه المهدى المنتظر لولا وثوقه من مؤازرة الجلابين له وانضمامهم إليه لأن الجلابين كما هو معلوم كانوا أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار وهم مغامرون وأهل كفاح وكان شعارهم عند الخروج إلى الغزوة لصيد الرقيق وجمع سن الفيلة وريش النعام والصمغ وما إلى ذلك «ياموت أحمر ياذهب أحمر» فيخرج الواحد منهم وفى حاشيته من الأتباع والعمال مئات الألوف من الرجال الشجعان الذين لايشتهون الموت على الفراش «كالغوين» (أى النساء) وكان هؤلاء يقومون لقيام رئيسهم المعروف «بالمنجل» ويقعدون لقعوده :

وكان من عادة الجلابين أن يمروا بجزيرة «أبا» وهم فى طريقهم إلى بلاد الزنوج مقر الفقيه محمد احمد وكان بهذه الجزيرة (منجره) لصنع المراكب وتعميرها فيضطروه إلى الاقامة بالجزيرة أياما عدة يتجهزون خلالها فينتهزون هذه الفرصة ويقدمون للفقيه (الاكراميات) ويطلبون منه الدعوات فيباركهم وينذرون له النذور فيقبلها ويوزعها على الفقراء من الحيران أى طلبة العلم وكان محمد احمد عند خروجهم من الجزيرة يقوم بتوديعهم فى حفل دينى كبير فيؤمهم فى صلاة تقليديه ثم يبتهل إلى «الله

« رازق النسر فى السماء والحوت فى بطن الماء أن ينظر إليهم بعين عنايته »
« ويسقيهم من صوب نعمته ويظلهم بجناح رعايته وأن يكون لهم فى بلاد »
« الغربة وديار الوثنيين حرزا منيعا وركنا دفينا ودثاراً وطيئا وأن يرمى »
« الوثنيين بالوثنيين ويخرجهم سالمين حتى يعودوا الى ذويهم غانمين . »

« وكان محمد احمد على اتصال بمجريات الحوادث فى مصر وما سبق »
« منها على وجه وجه الخصوص قيام ثورة احمد عرابى وشجعته هذه »
« الأحداث على المضى فى دعوته ثم لم تلبث يد القدر الساحرة أن غيرت حياته »
« فعظم شأنه واستفحل خطره وقد لازمه التوفيق فى جميع خطواته فإنه »
« ما شهد موقعة إلا انتصر فيها ولا حاصر مدينة إلا افتتحها فجاء هذا التوفيق »
« دليلا ساطعا على تعدد كراماته وآمن الناس برسالته وصاروا يتلقون »
« تعاليمه كما يتلقى الناس الوحى فى عصر الأنبياء »

تأكد لدى المهدى بأنه أصبح المالك المتصرف فى شئون السودان . فأعلن بأنه سيفتح الأمصار ويخضع الملوك والسلاطين وأنه لن يقضى حتى يفتح الحرمين وبيت المقدس وينزل إلى الكوفة ثم يموت هناك بيد أن المرض لم يلبث أن دهمه فأصابته حمى (التيفوس) وكانت إصابته شديدة لم ينج منها فتوفى فى يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ ودفن حيث مات وبنى له الدراويش قبة أطلقوا عليها اسم «قبة المهدى» وأمروا الناس بزيارتها ومما هو جدير بالملاحظة والذكريات أن هذه القبة كانت المؤسسة الوحيدة التى أنشأها الدراويش خلال السنوات الطويلة التى تمتعت فيها (المهدية) بالسلطان المطلق فى السودان . وعند استرداد السودان اطلق كتش-

قنابل مدافعه على هذه القبة فهدمها ، ثم أباد رفاةهذا المسلم الذى جاهد فى الله حق الجهاد . وقد ظلت القبة مهدمة مهجورة حتى سنة ١٩٤٧ . ثم أوحت الحكومة إلى « السيد عبد الرحمن باشا المهدى » نجله بتعميرها والاحتفال بتجديدها لكى تكون مزارا يحج إليه المريدون والاتباع!.

ومما يستحق الملاحظة بل ويحز فى القلب ويؤلم نفس كل مسلم غيور ما تذيعه الجرائد الإنكليزية — من وقت لآخر من أحاديث مؤيدة بالصور الفوتوغرافية ومنسوبة إلى السير عبد الرحمن المهدى باشا نجل الإمام محمد أحمد المهدى صاحب السيرة أقربها ما جاء بمجلة News Weekly المؤرخة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان The Black Knight أى الفارس من الأسود مظهره أياه فى ثوب من الاستنكار للسنين التى جرى عليها والده فى محاربة الإنجليز أعداء الدين ومصادقته لهؤلاء الأعداء ..! جالسا على مقعد فخم وبجانبه صورة فوتوغرافية لموقعة « كررى » أى موقعة أم درمان وهى ماساة تستحق البكاء والنحيب .

وإذا أصفنا ما يقوم به « نجل المهدى الكبير » السيد عبد الرحمن المهدى باشا من مسعى غير مشكور فى سبيل ربط السودان بعجلة الإمبراطورية الانكليزية غمرنا الأسى والشجن وقلنا مع القائلين « النار تخلف رماد » وفضلا على أنه أنزلق فى هذا السبيل فقد تهاون فى سيف أبيه الذى قال عنه والده « أن النبى صلى الله عليه وسلم سلمه هذا السيف يدا بيد ليحارب به أعداء المسلمين » ، غير أن السيد تهاون وابى إلا أن يسلم أعز تراث إلى ملك الإنجليز سنة ١٩١٩ (وهو السيف) ولكن جلالته — تفضلا منه — رفض قبول السيف ورده إليه ولا نعلم أين هذا الأثر الميمون الآن .... ؟ !!

الفصل السابع

الثورة المهدية

فذلكة . من هو السودانى . المهدى ، المخلص ، الفادى ، المسيح قديما . ثورة المصريين القدماء من اجل الخلود . الثورة المهديه من اجل الدين . انصار المهدى . هل كانت الثورة ضرورية استقالة غردون باشا . تعيين رءوف باشا . اعلان المهدية . اقالة رءوف باشا . تعيين عبد القادر باشا حلمى . اعماله . استدعاء عبد القادر باشا لمصر . تعيين علاء الدين باشا . تعيين هكس باشا حاكما عسكريا وهزيمته . تعيين غردون باشا من قبل الدولة الانكليزية واليا عاما على السودان بقصد اخلائه . اخطاء غردون باشا . سقوط الخرطوم فى يد المهدى

تناول الكتاب المسألة السودانية باهتمام منقطع النظير هذه الأيام وذلك بعد أن ظل الحديث عنها وقفا على الصحف دهرا طويلا تنقل من أخبارها نتفا صغيرة من وقت لآخر ، ومرد هذا الاهتمام البالغ — فى اعتقادى — إلى نضوج الوعى القومى فى السودان . هذه حقيقة لاسبيل إلى نكرانها وان كان مما يدعو الى الأسى أن يقف بعض أبناء السودان من اخوانهم وأبناء عمومتهم المصريين موقف الانكار فالعداء فالنضال، طلبا للانفصال ، حين جد الجد وأتى اليوم العصيب ، فتجازى السودان مصر شرا بخير ونكرا بمعروف وسيئة بفعل حسن .

نعم أن هناك من يدعون الى الانفصال ويقولون بلسان غيرهم: « انظروا إن المصريين يريدون أن يستعمروا السودان حتى يستعبدوا أهله ويستبدوا بأمور الناس ويستأثروا بخيرات البلاد ويجددوا مآسى الماضى » وفاتهم أن مصر الأم البارة الشقيقة ما استهدفت فى الماضى بتاتا ولن تستهدف فى المستقبل « استعمار » السودان . وكأنى بمصر ولسان حالها يقول « كلنا فى الهم شرق ، وواجبنا أن نوحد جهودنا حتى يمكنا الخلاص مما نحن فيه من محن وارزاء . حتى اذا استرجعنا حقوقنا المغصوبة « استطعنا كاشقاء أن نتعاون فيما بيننا على البر والتقوى ولا نتعاون على الاثم والعدوان » .

أما عن مآسى الماضى المزعومة فامامك التاريخ قلب صفحاته وسوف تجد أن من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨٤ كنا أنا وأنت يدا واحدة وكانت الخيرات موفورة والرخاء شاملا والتقدم مطردا . على أن اعصارا مالبث حتى قام بعد ذلك فلف كلانا فى باطنه .

« وفى سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٢٤ كنا أنا وأنت مغلوبين على أمرنا عدونا المشترك يعمل على استغلالنا واستزاف دمائنا واشاعة الكراهية والبغضاء فى نفوسنا بعضنا ضد بعض وما زال هذا العدو حتى يومنا هذا يقدم السيئة للوطنى ويخفى الحسنة عنه وعلى هذا السنن جرت الحكومة فهى تسىء الى المحسن وتحسن الى المسىء .

« فيتحتم علينا أن نفحص الواقع وننزل عند أحكامه ولا نميل مع

الهوى لأن كل تفكير تحركه الشهوة صائر إلى الفساد . وكل تدبير تسوسه الغفلة مصيرة إلى الافتضاح . فتدبروا الأمر ياسادة قبل أن تهجم عليكم عهد العناء والضعف والخضوع والاستسلام والرضا والاتكال وأنكم أن لم تعتبروا بالماضى ويستفيدوا من دروس الحاضر خفّت عقولكم فلا تشتروا العاجل بالآجل واذكروا قوله تعالى :

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . »
« فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا » .

وبعد فلنعد إلى ما كنا بصدده فنقول :

درج كتاب التاريخ على وصف القواد والزعماء والوقائع وحسب كأنة لم يعش على أرض السودان ولم يسعد ويتألم غير هؤلاء القواد والزعماء والملوك . وكأنما كانت الأمة السودانية بمعزل عن الحوادث يفصلها عن العالم سياج سميك لا ينفذ منه شىء وكأنما فنيت شخصية هذه الأمة فى شخص حاكمها فأمسى تاريخها هو سيره ذلك الحاكم المتصرف فى مقاديرها مهما ساءت سيرته وكانت حياته مليئة بالشرور والآثام .

لذلك رأيت لزاما على أن أبادر ـ قبل الكلام عن الثورة المهدية ـ بالحديث عن السودانى كما عرفته نتيجة اختلاط ومعاشرة دامت أكثر من ربع قرن وهذا أقل ما يقتضيه عرفان الجميل ،وما يدعو إليه الواجب.

فطر السودانى على الكرم فكم من شيخ يملك ثروة طائلة نزعت نفسه إلى الشرف فافنى ماله فى اكرام الضيف حتى أصبح فى آخر أيامه فقيرا يكاد لا يصيب إلا الكفاف فاذا دنا الأجل جمع أولاده وقال لهم

« يابنى الأعزاء اجعلوا نفوسكم وأموالكم لضيوفكم فتفوزوا بحسن السيرة واحترام الناس لكم » ثم تقبض روحه وهو مبتسم مسرورا .

والكرم من الصفات الانسانية السامية التى تدل على سماحة الطبع ورقة الوجدان وتقدم الفرد فى سلم الارتقاء الاجتماعى وهو صفة كلية تتفرع عنها عدة خلال نبيلة . فالكريم لابد أن تطوى حناياه على الرأفة والإيثار والنجدة والاحساس بآلام الغير . والسودانيون فقيرهم وغنيهم على السواء يعتبرون الكرم واجبا لا معدى عنه ولا شكرا عليه .

وكثيرا ما يقصد الحلة غريب فتتنافس العائلات فى الظفر به ولها فى ذلك نوادر طريفة تكشف عن أريحية أصيلة وكرم طبيعى .

والسودانى علاوة على جوده الدائم وإحسانه الذى لا ينقطع على الفقراء وما يدفعه من ضرائب للحكومة يؤدى سنويا جزءا معلوما من ماله للمحروم وصاحب الحاجة باسم زكاة رمضان . فهو اشتراكى بالفطرة من هذه الناحية .

والسودانى لا يخلد إلى الذل والصغار مهما تجلت له وجوه المصاعب والأقدار . وهو لايطمح إلى المعالى إلا لينال صيتا بعيدا وشهرة واسعة بين أقرانه وفى عشيرته . وهو يؤثر المنون على العار والهوان . يدفعه الفخر إلى سامى الفضائل الطبيعية . و عزة النفس تنهض به إلى الانتقام أو طلب الحق أو الأخذ بالثأر . وهذه تعد من النواميس الشريفة يقيم لها السودانيون منزلة رفيعة ويقربونها من الفرائض الضرورية المقدسة .

فإن ضغينة أخذ الثأر تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد فتأتى الريح ويكشف الرماد فتظهر الأحقاد بالانتقام .

ويمتاز السودانى إلى جانب كرمه بحيائه الرائع . حياء الرجولة الذى ينزه صاحبه عن الصغائر ويسمو به عن ارتكاب النقائص الخلقية . فقلما تجد سودانيا يترنح من شدة السكر أو يتفوه بالألفاظ الشائنة التى تنبو عنها الأسماع والسودانى من الناحية الدينية مؤمن أعمق الإيمان ملتزم حدود الشريعة قائم على أحسن وجه ممكن . وهذا التمسك بالدين يدعوه إلى البر ويحض على مكارم الأخلاق وهو لذلك من أسباب نشر المساواة وتفشى العدالة بين الناس .

والسودانى موفور الذكاء وقاد القريحة قوى الذاكرة يحفظ الحوادث بتفاصيلها الدقيقة مهما بعد لها العهد . ويتجلى ذكاء السودانى وما يتحلى به من صفات عقلية وخلقية فيما فطر عليه كل أولئك الزعماء والقادة والمصلحين الذين يتسلمون زمام البلاد كلما أدلهم الخطب وتلهفت الأمة إلى زعيم قادر يستطيع الوصول بسفينتها إلى بر السلامة بل وأن ظهور هؤلاء القادة والمفكرين اليوم لأسطع دليل على الشجاعة الباهرة والإباء الصادق الذى يتحلى بهما أبناء السودان الميامين . وهذه الصفات نفسها هى التى ساعدت - إما مباشرة وإما بطريق غير مباشر . على ظهور المهدية فى السودان ونجاح دعوتها .

• • •

« والمهدية » وما تنطوى عليه من رغبة ملحة فى الخلاص من المساوىء

التي يشكو منها قوم من الأقوام وما تهدف إليه من بناء حياة محررة سعيدة قديمة العهد ظهرت في الحقيقة في صور متنوعة وفي عصور متفاوتة في القدم ولدى أقوام وشعوب اختلفت عاداتهم وتباينت أساليب حياتهم. وآية ذلك أن الأمم الغابرة كقدماء المصريين والبابليين والفرس واليونان والرومان وغيرهم، كانوا جميعا يعتقدون عند اشتداد الخطوب في ظهور (مخلص). أو مهدي إذا جاز لنا قول ذلك. مهمته (تخليص هذه الشعوب) من أية كوارث اقتصادية واجتماعية أو دينية تكون قد نزلت بهم وتاريخ الأمم القديمة مفعم بالثورات والحروب الداخلية التي ترتد في أصولها الى رغبة الخلاص من هذه الكوارث. على يد ذلك (المخلّص) أو (الفادي) أو (المسيح) أو (المهدي) أو (المصلح) أو (الإمام المنتظر) فمتى غلب اليأس على أمة صارت لا تفكر إلا في ذلك المخلص فيستولي عليها شيء من الهوس وتصبح سريعة الانقياد سهلة التصديق أي أنها تكون بمثابة آلة عمياء في يد الطامعين في الرياسة وأصحاب الأغراض الشخصية الذين يستخدمونها في قضاء مآربهم حتى إذا نجحوا في قضاء وطرهم تركوها وشأنها تعاني بعد الفشل أنواع العذاب وتنتظر (مهديا) آخر يصدق في هذه المرة ولا يكذب قد يظهره الله أو تستبقيه الى آخر الزمان.

والذي تؤيده شواهد عدة من التاريخ أن فكرة المخلص أو المهدي ظهرت بين الطبقات المقهورة وهذا لا يحدث إلا بعد انتقال الأمة من دور البداوة إلى دور الحضارة حين تأخذ السلطة المركزية تنمو وتقوى وتتسع التجارة ويشيع بين الناس التعامل بالنقود وتكثر عوامل الغنى والسيادة

أى عوامل التفاوت والتفريق بين الأمة الواحدة وظهور الطبقات بينها وما يعقب ذلك من نزاع مستمر بين هذه الطبقات فلا يبقى لدى المغبون سوى الأمل فى ظهور (مخلص) يبعثه الله لينقذه من العبودية ويرد إليه حقه المهضوم ويزيل الفوارق بين الطبقات .

وقد تضحك الآن من ثورة قدماء المصريين الذين قاموا بها منذ خمسة آلاف سنة لكى يحفظوا حقوقهم فى الخلود بعد الممات حيث كان يقال لهم أنه لا يخلد بعد الموت سوى الفراعنة وعظماء الدولة . أما عامة الشعب فالى الهاوية والفناء المحقق ولذلك لا يجوز لواحد من عامة الشعب أن يبنى ضريحا على قبره ولهذا السبب ثار الشعب المصرى وطلب من حكومته الخلود بعد الموت .

وفى السودان اشتعلت ثورة المهدى بسبب مخالفة تعاليم الدين الحنيف وتبرم السودانيين من النظم القائمة ولما كان أنصار المهدى قوما بدائيين فقد انقلب القصد وبدلا من التفكير فى إحدى الوسائل لإصلاح المفاسد وإزالة البدع والخرافات استبد بهم الخوف على الدين وسيطرت على أذهانهم الرغبة فى المحافظة عليه ، بل صارت البدع والخرافات التى كان يجب العمل على إزالتها جزء لا يتجزأ من ذلك (الدين) الذى تمسكوا به واعتقدوا بصحته وآمنوا بصدق الداعين إليه من فقهائهم وعلمائهم ، وانحصر اهتمامهم فى الدفاع عنه كعمل لا غنى عنه اذا هم طمعوا حياة سعيدة بعد الموت وعلى ذلك فقد فضلوا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا

وصار كل ما فى هذه الدار - دار الحياة الفانية - صغيرا فى اعينهم . فهم انما يعيشون فى هذه الدنيا وكأنهم ليسوا منها . وقد تمكن من نفوسهم مذهب العدم أى انكار كل ما فى الوجود ووجوب العمل بما يقضيه التخريب وتلزمه الإبادة فهم يهدمون ولا يبنون وقد استجاب الناس الى هذه الثورة الجامحة بدرجات متفاوتة وكان منهم المتطرفون كعرب البقارة والرزيقات ودغيم وكنانة فانغمسوا فى أعمال السلب والنهب وسفك الدماء واستباحة الحرمات فتم على أيدى هؤلاء الخراب وسقطت البلاد فى الهاوية ولم يبق لعقلاء القوم سوى التسليم بمشيئة الأقدار .

والواقع أن هؤلاء العربان لم يبقوا على شىء فى طريقهم إلا أبادوه أو نهبوه حتى الأضرحة والمساجد والسواقى والشواديف والمواشى والمزروعات وغير ذلك ويبدوا أن سبب هذه الشرور وعلة هذا الفساد أن هؤلاء العربان ليس لديهم من القوت والعتاد إلا ما يستخلصونه بالإكراه من أيدى الأهليين ومن قاومهم عده كافرا منكرا بل ملحدا يستحق اللعنة والعذاب .

فلأجل أن نأكل هذه الجحافل الكبيرة ولأجل أن تجد من القوت والعتاد ما يعينها على الجهاد (فى شان الله) كان لا بد لهم أن يعمدوا الى ما عمدوا إليه من الاستيلاء عنوة وأقتدارا على كل ما وصلت إليه أيديهم . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هؤلاء العربان قد نشأوا على البداوة ودرجوا على الخشونة ، وحياتهم رحلة وانتقال وإغارة وقتل وسلب فلم يكن للمدن ولا للزراعات فى نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها فى نفوس

أهل الحضر الذين استطاعوا العيش فى ظلالها والإقامة فى رحابها . وكأنى بهؤلاء العربان وقد أرادوا بفعلهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحضارة فى السودان وأن يطبعوا البلاد بطابعهم الخاص وأن يخلفوا عليها مظهر بداوتهم الذى يؤثرونه على ما عداه لاسيما وأن الإمام المهدى ، محمد أحمد ، كان قد أوصاهم بالعمل على ترك الدنيا وزخرفها والزهو فيها لقاء الفوز بنعيم الآخرة فركبوا متن الشطط وسلكوا طريق النهب والاغتصاب وسفك الدماء وقضوا على معالم الحضارة فى كل مكان نزلوا به يطلقون الأعنة لغرائزهم المكبوتة وينتقمون لأنفسهم من أولئك الحضريين ، ناس بحر ، الذين دانت لهم الدنيا وتذوقوا لذائذها وتعالوا عليهم بما يملكون من مناعم الحياة .

وكان الأنصار ، أنصار المهدى ، وهم الذين يسمون بالدراويش من عرب البدو سكان الغرب الذين غلبت عليهم بداوتهم فكانوا من الرحل لا يستقرون فى مكان ولاتربطهم بالأرض التى يسلكونها روابط وثيقة كما هو شأن الزراع وهم يتربصون مواسم الغيث حتى يخرجوا بكل ما لديهم من نساء وإبل وأبقار وأغنام وخيول يطلبون المرعى . لا يبذلون جهدا عقليا فى تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضر بل يعتمدون على ماتفعل الأرض والسماء فإن أمطرت السماء رعوا وإن احتبس المطر فى مكان رحلوا منه إلى مكان آخر وينقسم هؤلاء البدو إلى قبائل . وتعيش هذه القبائل فى نزاع دائم ولم يطبع البدوى على الاشتغال بالتجارة فإذا اشترك مع غيره ممن يحذقونها صار عالة لايعدو القيام بدور الدليل الذى

عرف الطرق والدروب أو الحارس الذى يحمى قوافل التجار من اعتداءات العربان الآخرين .

وأفراد القبيلة الواحدة متضامنون فيما بينهم أشد التضامن ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما وهم يد على سواهم . إذا ارتكب أحدهم جناية تحملت القبيلة مسئولية الجرم وإذا غنم غنيمة فهى للقبيلة ولرئيسها خيرها وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجا إلى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه فردا من أفرادها . فوطن البدوى قبيلته وهذا الشعور الذى يربطه بقبيلة يحميها وتحميه هو المسمى « بالعصبية » .

ويخطىء من يظن أن أهل البادية لا دين لهم فللبدوى دين وعقيدة ثابتة ويعتقد بوحدانية الله عز وجل ويسلم برسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فلا يخطو خطوة دون أن يذكر المولى عز وجل ونبيه الكريم ويعتقد البدوى ألا مرد لحكم القدر لأن الله سبحانه وتعالى هو المسبب لكل شىء من خير أو شر فى هذا العالم ولا إرادة للإنسان ولا حرية فى اختيار الطريق الذى يسلكه ، فالإنسان ذرة حقيرة فى يد القدر يفعل القدر بها ما يشاء وكم من خارقة يعزوها البدوى إلى فعل الله وإرادته . فبينما السماء صافية والأرض فى راحة وهناء إذ بريح عاتية تتصاعد كأعمدة نحو الفضاء فتعدوا زوابع مريعة تعقبها إضطرابات جوية — من برق يخطف الأبصار ورعد يصم الآذان — الله مبدع كل ذلك . الطيور الصغيرة والوحوش الضارية تدب وتسعى وراء رزقها .

المولى يكفل لها القوت والحياة . الخصب والجدب ، الخير والشر ، الخطايا بأنواعها ، الفقر والغنى ، والمجد والهوان ، والكذب والصدق ، والموت والحياة . كل ذلك من عند الله .

ويرسم البدوى فى ذهنه صورة « الله » عز وجل أنه جائلا فى الأرض وبيده سيف المنية وكأس الحياة . فيلاقى ذلك طريحا مجندلا . ويسقى الآخر ماء الحياة .

ويحرص العربان على تأدية فرائض الدين وفى مقدمتها الصلاة وهنا ياترى يصح لنا التساؤل هل يحفظ العربان فاتحة الكتاب ؟ الله أعلم . إن عددا عظيما منهم يجهلون نصها وفضلا عن ذلك فإن لهم فى واقع الأمر صلاة خاصة بهم ذلك بأنه إذا أراد أعرابى الصلاة انتصب قائما ثم رفع وجهه إلى السماء قائلا « يا الله هُوىْ السماء سماتك والأرض وطاتك : أقوم وأركع على جلاتك « الله أكبر » ثم يضرب بيديه على فخذيه ويخر ساجدا وبذلك تنتهى الصلاة وهى الصلاة القصيرة فى عرفهم . وأما الصلاة الطويلة فيقيمها العربى قائلا « يا الله . قامت الصلاة والله أقامها . يارب فرشت فراتى تقبل صلاتى . الحمد لله حمد البلاد بالمطر . حمد الأنثى بالذكر . حمد العين بالنظر . حمد من شاف عوره وستر . يا ماحى السيئات تمح سيئاتى . يا كاسب الحسنات تكسب حسناتى . وترحمنى وترحم أهلى وأمواتى . أجرنى من الإثنين « منكر ونكير » . اللى بيدهم بمطرق حديد : أستغفر الله على ما ألهيت . وأستغفرك على ما أسهيت .

وأستغفرك على ذلة جنيت . وأرحمنى حى وميت » .

وإذا سألت إعرابيا : أين الله قال « إن الله يملأ الدنيا كأن له جوادا أسرع من وميض البرق يطوى العالم من أقصاه إلى أقصاه فى لمح البصر ويراقب الأعمال كلها ويعلم النيات » .

هذا ما سمعناه من أفواههم سطرناه ليدرك القارىء الكريم ما كان عليه هؤلاء الأنصار (أنصار المهدى) من الفهم والإدراك على أنه لما يجب ذكره أن هذا الكلام ينطبق على عامة البدو وحسب إذ هناك فقهاء أجلاء يعرفون أصول الدين ويؤدون الصلاة كما أنزلت ويجدون فى قيادة الناس إلى الهدى والنور .

وليس الغرض أن نخوض فى صحة ادعاء محمد أحمد وعدم صحته بل نكتفى بأن نشير على القارىء الكريم بمراجعة ما أبداه علماء وقته من الآراء السديده والارشادات المفيدة وبخاصة رسالة العالم الجليل السيد أحمد الأزهرى وقد أثبت هذه الرسالة القيمة « نعوم شقير » فى الجزء الثالث من « كتابه تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » .

ولعل أهم ما يؤخذ على دعوة الامام محمد أحمد أنها لم تكن صريحة تهدف إلى الغاية الظاهرة التى كان يهدف إليها السودانيون وقت ذاك وهى تخليص البلاد من حكم الأجانب الكفار الذين أزهقوا أرواح البلاد وصادروا أرزاقهم وأقواتهم تحت ستار العمل من أجل إبطال

الرق والنخاسه بل لجأ المهدى بدلا من ذلك حتى يكسب الاعوان والأنصار الى الاعتماد على الالهامات العالية وشطحات المتصوفة والدراويش وهى أشياء وان كان قد غمض على أتباعه ادراك حقيقتها ودقة معرفتها على أفهامهم وقتذاك فان التجارب الطويلة مدة خمسة وستين سنة لم تلبث أن كشفت للناس عن الحقيقة وجعلت الكثيرين منهم يشعرون شعورا عميقا ثابتا بأن تلك « الخيالات » لم تكن الا حبائل نصبت للتمويه على العامة ولتضليلهم فكانت صدمة عنيفة تلك التى أرغمت العديدين على الاستفاقة من سباتهم فادركوا ـ بعد فوات الوقت ـ أنهم كانوا آلات محركة فى أيدى طغمة من الانتهازيين الذين استطاعوا أن يحيكوا أطراف مؤامرة واسعة النطاق تمكنهم من الاستئثار بكل سلطة فى بلادهم وإن أفضى ذلك إلى حدوث نكبة جسيمة تأتى على الحرث والنسل وتلقى بالسودان فى أحضان الفوضى الخطيرة .

نعم كان الأجدر بالامام محمد أحمد وأحرى به أن يكتفى باستغلال العوامل التى تضافرت على إثارة شعور الناس ذلك الشعور الذى كان يحمل فى طياته بذور الحقد والضغينة والانتقام منذ أن حضر صموئيل بيكر حاكما على خط الاستواء وبدأ عهد التقتيل والتجريد والإبادة فى السودان الأمر الذى ألهب الشعور والب السودانين ضد الاوربيين وأهل الليفانت وكانت فى طليعة الغاضبين الثائرين جماعه (المرافيت) من الموظفين وفلول جيش سليمان الزبير وهرون الرشيد والصباحى وسكان البحر الأبيض ثم جحافل الجلابين الذين يتمت أولادهم وسبيت

نساؤهم فى دارفور وغيرها وذلك إلى جانب كل أولئك الذين ساءهم ان يروا البلاد تتمرغ فى الفسق والدعارة والفساد . اما أن يدعى الإمام محمد أحمد الالهامات العالية ومصاحبة سيدنا الخضر واتخاذه جاسوسا على الناس وأنه خليفة النبي خاتم الرسل وحيث يقول أنه رآه رأى العين . فى حالة اليقظة وأنه أجلسه على كرسيه وقلده سيفه وغسل قلبه بيده إلى آخر ما ذكر فذلك ما أخرج حركته عن دعوة الاصلاح الاجتماعى والدينى إلى ثورة هوجاء جامحة لا تستند إلى شىء من الحق أو الدين الصحيح .

ومما يدعو إلى الأسف أن المهدى أعلن الجهاد وصار يحرض على قتل النصارى فى وقت كان السودان يعج فيه الأجانب المسيحيين من التجار وقناصل الدول وجمعيات التبشير الكاثوليك والأورثوذكس والبورتستانت نساء ورجالا رهبانا وراهبات فأثار بعمله هذا الأحقاد الدفينة ومكن الانكليز من توطيد أقدامهم فى مصر وأكسبهم من ذلك الحين عطف وإعجاب الدول الأوروبية وضمان مؤازرتها . ذلك بأن المسلم أصبح فى عين المسيحى مجرد « درويش » يجب إبادته دون شفقة أو رأفة . وآية ذلك أن كتشنر أباح لنفسه الإستمرار فى ضرب الدراويش بالقنابل فى (كررى) موقعة أم درمان مدة طويلة بعد هزيمة هؤلاء . كما هدم قبة المهدى بالقنابل بل دفعه الحقد والتشفى والاستهتار إلى نبش قبر صاحب الدعوة الإمام محمد أحمد وإلقاء عظامه فى مستوقد وابور « أبو طليح » كما جاء بكتاب « واليس بادج » أو إلقائها فى النيل كما جاء

بسيرة المستر تشرشل فى مارس وابريل سنة ١٩٤٥ من مجلة الهلال (صفحة ٣٦٧) حيث نقد تشرشل كتشنر لتهوره الأخير ويرى الأول أن صيحة الانتقام والثأر لغردون قد أذهلت كتشنر ورجاله عن واجبهم كمحاربين شرفاء ثم يقول . إذ ما ذنب هذا الجثمان المسجى فى التراب تحت القبة المهدية يفصل رأسه عن بدنه لحمل الرأس كرمز انتصار . ويقدم بالبدن التاعس فى النيل بأمر السردار وتهدم القبة . »

ومن واجبنا وقد مضت كل هذه السنين الطويلة أن نتساءل الآن هل كانت الثورة المهدية أمراً لا مفر من حدوثه ؟ الواقع أن هذه الثورة أمراً محتوما وغير محتوم فى آن واحد . فقد كانت هناك أسباب كثيرة للثورة ومع ذلك فقد كان فى الأمكان إزالة هذه الأسباب إذا أعطى الإنسان شيئا من اللباقة وحسن التصرف وبعد النظر فإن أهم هذه الأسباب اطلاقا فكان مباغتة البلاد بضرورة إبطال الرق فوراً ودون إمهال وذلك بطرق وأساليب هدامة ووحشية فكان الألغاء — سياسة إلغاء الرق بالسيف والنار — بمثابة حرب صليبية هوجاء ومطاردة صارمة تشيع الرعب فى النفوس والفزع فى القلوب . وكان (الإلغاء) كارثة وزادت المحنة وعظمت البلوى حينما شاع فى طول البلاد وعرضها مقتل سليمان الزبير وأعمامه غدرا وهرون والصباحى وأخبار الفتك بالجلابين العزل وسبي نسائهم فى دارفور وفى كردفان على نحو ما تقدم ذكره وحدث ذلك كله مدة حكم غردون عندما كان حاكما عاما على السودان بين عامى ١٨٧٧ ، ١٨٧٩ فامتلأت النفوس بالحقد والخوف والفزع الممزوج بالحزن

والحسرة وضج أهل السودان بالشكوى وعلت صيحات الاستنكار فى كل مكان وصارت البلاد تغلى كمرجل على وشك الإنفجار فكنت أينما سرت ترى قلوبا مجروحة وأصواتا مبحوحة ودهشة عصبية بادية فى الايدى ومرتسمة على الوجوه وكنت حينما قصدت تجد السودانيين المشردين من فلول جيش سليمان وزملائه يهيمون على وجوههم سادرى البصر ، خفيفى الخطى ، كأنهم يشعرون بثقلهم على الأرض ـ ويلوذون فى أطراف الأماكن النائية كانهم يشعرون بثقلهم على الناس يتنفسون خلسة كانهم يشعرون بتطفلهم على هواء غيرهم ـ لا يلقون غير نظرات الاحتقار ، ولا يصادفون غير بسمات السخرية والاستهزاء فهم من الناس يفرون وإلى أنفسهم يهربون . يأكل الأسى قلوبهم وتحرق الأنات العميقة ضلوعهم ويبدو الحزن على الوجوه حزنا تسوده الدهشة والذهول ينم عن أستسلام صاحبة لأحكام القدر .

وكنت ترى فى كل مكان الناس يتكلمون بصوت خافت ـ أنفاسهم متقطعة يستبد بهم اليأس وكانهم فى مأتم وكانت أرواح (الشهداء) من (الجلابة) الذين قتلوا وعذّبوا وشرّدوا ما زالت ترفرف فوق الرءوس وكان اشباح هؤلاء الضحايا مازالت تطوف فى كل مكان .

على أن هناك حقيقة ثابتة كثيرا ما أغفلها الكتاب والمؤرخون هى أن قتل سليمان الزبير والقضاء على قواته واحتجاز الزبير باشا نفسه فى مصر ثم قتل الصباحى وهارون كان من أهم العوامل التى ساعدت على

نجاح المهدية ، ومكنت محمد أحمد من الأمعان فى دعوته ، وحشد جموع السودانيين حول رايته ، وذلك لسببين . أولهما زوال « الشخصيات » السودانية العظيمة من الميدان وهى الشخصيات التى أثبتت الحوادث أنه كان بوسعها أن تتولى زمام القيادة فى هذه الأوقات العصيبة ، وفى استطاعتها أن تجمع حولها الآن المتذمرين والحانقين من التجار والجلابين الذين صادر غردون على وجه الخصوص وأعوانه متاجرهم وأموالهم وأرزاقهم ، وأوقع فيهم هو وأعوانه كذلك مقتلة عظيمة، فانضم الجلابون وعديدون من الأهلين على نحو ما شهدنا إلى الصباحى وسليمان ، وهارون على اعتبار أن هؤلاء قادة حرب من المنتظر أن يتم على أيديهم طرد الأجانب (الكفار) من البلاد بقوة السيف والانتقام للأهليين من الشرور والآثام التى أرتكبها الطغاة الباغون .

ولم يكن فى مقدور محمد أحمد ، وهو الفقيه الذى بدأ دعوته من أول الأمر ينشد مجرد الأصلاح الدينى والاجتماعى ، وإحياء الملة ، أن يقود حركة واسعة من أجل التحرير والخلاص ، تعتمد على أساليب العنف والشدة . ومع أنه قد مر على هذه الحوادث الآن خمسون عاما وزيادة فإنه ما يزال بعض عقلاء السودانيين وحكمائهم يذكرون أن من أهم أسباب نجاح دعوة المهدى قتل سليمان وسائر الزعماء القادرين على الكفاح ، واحتجاز الزبير رحمه باشا فى القاهرة على وجه الخصوص .

وأما السبب الثانى وهو مترتب فى الواقع عن السبب الأول فيتلخص فى أن الأمام محمد أحمد استطاع استغلال الظروف الناشئة وقت ذاك

نتيجة لإعدام سليمان وأعمامه واستشهاد الصباحي وهارون وغيرهما استغلالا مكنهم من تحويل مجرى دعوته الأصلية من المطالبة بالاصلاح وإزالة المساوىء المتفشية إلى ثورة عاتية شعارها تخليص الدين نفسه من الأخطار التي صارت تهدد بزواله على أيدى الكفار الاجانب أمثال غردون ، وأمبلياني ، وجسى ، ومبسبداليا ، وليتون ، وسلاطين وغيرهم . ولم يلق محمد أحمد فى إجراء ذلك التغيير أية صعوبة . ذلك بأن فلول جيوش سليمان والصباحي وهارون ، وفلول الجلابين الذين (استشهدوا) منهم عديدون فى أثناء النضال المستمر بينهم وبين رجال الحكومة صارت تضرب فى الفيافى والوديان على غير هدى . فتوق جماعاتهم إلى الانتقام ، وتطلب (قائدا) آخر و (مخلصا) ينضوون تحت لوائه ، يشن على الكفار القتلة حربا لا رحمة فيها ولا شفقة ، ويستأصل شأفتهم من هذه البلاد استئصالا .

وكان فى هذه الظروف الدقيقة ، أن تعالت الصيحات من كل مكان بأن (الدين فى خطر) وأن واجب القوم أن يعملوا متساندين متعاضدين لتخليص الدين من هذا الخطر وكانت هذه عبارات هزت المشاعر وانسابت فى النفوس ، ونزلت بردا وسلاما على قلوب الجلابين ومعهم سليمان والزعماء الآخرين ، إذ وجدوا فى الدفاع عن الدين غرضا شريفا تحتمه الفرائض على كل سودانى مسلم ، فهم لا ينضوون تحت لواء المهدى للانتقام وحسب مما لحق بهم من أذى على أيدى غردون والكفار بل ومن أجل تخليص الدين الحنيف ، والاستشهاد فى سبيل الله . وسرت الدعوة لتخليص

الدين من الخطر الذى كان يتهدده سريان النار فى الهشيم ، فانضم الآن إلى صفوف المجاهدين كل أبناء السودان فى الحضر والبادية على السواء. أى كل أولئك الذين ذاقوا الأمرين فى العامين اللذين قضاهما غردون حكمدار أى « حاكم عام » وصار شعار الجميع فى قومتهم (الدينية) الجديدة : (فى شان الله) أى الجهاد من أجل تخليص الدين والاستشهاد فى سبيل الله .

على أنه حدث والبلاد تغلى بالثورة على هذه الصورة من اقصاها إلى أقصاها ، أن غادر غردون باشا السودان . . . وعلى أثر تدخل الدول وعزل الخديوى إسماعيل ، وكان لذلك آثار خطيرة فى السودان . فقد هيمنت على مصائر الوادى عند بداية الاحتلال البريطانى حكومة ضعيفة فى القاهرة لم يمكنها التفرغ فى شئون السودان تفريغا تاما يساعد على إخماد حركة المهدى قبل أن يستفحل خطرها . بل أن تدخل الانجليز فى شئون السودان فى سنوات الاحتلال الأولى لم يلبث أن زاد المهدية قوة على قوتها . حقيقة عينت الحكومة محمد رؤوف باشا حكمدارا أى حاكما عاما على السودان بدلا من غردون ، وكان رؤوف رجلا محنكا . له من واسع الخبرة بشئون السودان ـ بفضل السنوات الطويلة التى قضاها فى الخدمة فى القطر الشقيق ـ ما يجعل الانتصار على المهدية أمرا ممكنا . لو أن الامدادات الكافية وصلته من القاهرة من جهة ولو أن حرية العمل قد كفلت له . ولكن مخاوف الإنجليز من أن يستعيد تجار الرقيق والجلابون نشاطهم بعد ذهاب غردون سرعان ما جعلتهم يضغطون على حكومة القاهرة حتى ترسل أوامرها المشددة إلى رؤوف فى ضرورة القضاء

على الجلابين ومطاردتهم دون هوادة ووجد رؤوف لزاماً عليه فى هذه الظروف أن يبقى فى مراكزهم أولئك الأجانب الذين عينهم غردون فى مراكز الحكم والادارة فكان استبقاء هؤلاء من الاخطار الجسيمة . وفضلا عن ذلك فإن رؤوف باشا لم يحقق ما عقد عليه الآمال لتهاونه فى معالجة دعوة المهدى وكان هذا التهاون خطأ جسيما آخر ارتكبه رؤوف . وذلك كله فى الوقت الذى أخذ رؤوف على عاتقه مطاردة الجلابين والاستمرار على سياسة السيف والنار التى بدأها غردون وأعوانه (الكفار) فوجد محمد أحمد فى ذلك فرصة مؤاتية للامعان فى نشر دعوته وتحريك الثورة الجامحة ضد الحكومة التى استعانت على حد قوله بأجانب وكفار فى إنزال صنوف العذاب والفتك والإرهاق بالأهلين قاطبة . وقويت الصيحة (أن الدين فى خطر) فكنت ترى السودانيين فى كل مكان يرددون « الدين فى خطر » وكيف لا يكون الدين فى خطر وأنت ترى النصرانى يحكم مسلما ويتحكم فيه وفى كل ما يملك ! ! يالها من مذلة ويا له من عار كبير » .

وعلى ذلك فقد نشط محمد أحمد فى دعوته وصار يعزو ما حل بالناس من محن وكوارث إلى خطئهم فى الدين وإهمالهم تعاليم الشريعة الغراء . ثم أخذ يكثر من ذكر الآيات القرآنية التى تحرم على المسلم طاعة غير المسلم ويشير بأن الله سبحانه وتعالى سوف يبعث رجلا يصلح ما أفسده أعداء الدين . ويشيد حكما أساسه العدل والمساواة المطلقة ويمحو المساوىء والمظالم التى ضاقت بها الدنيا وضج منها السودانيون . وأما هذا الرجل

فهو المهدى المنتظر . ثم أعلن محمد أحمد أنه (المهدى المنتظر) ومن شك فى مهديته كفر وما أن أعلن مهديته حتى أقبل الناس عليه يعلنون إيمانهم الصادق بمهديته ويمنون النفس بالخلاص مما هم فيه على يديه . وصاروا يترنمون قائلين :

« بشائر الخير إجت لينا . بظهور المهدى والينا »

ولما نادى المهدى بالعصيان والثورة والامتناع عن دفع الأموال المطلوبة ـ مال الميرى ـ علت الصيحات فى كل مكان :

« عشرة فى تربة ولا دفع الطلبة »

وكان مما أيد الدعوة وزاد فى مكانة المهدى ورفعة شأنه انهزام القوات الصغيرة التى أرسلها محمد رؤوف باشا للقبض على محمد أحمد وإخماد الحركة وهى ماتزال فى مهدها .

فتوالت انتصارات المهدى على جند الحكومة واضطر رؤوف باشا إلى طلب النجدة من مصر ولكن الثورة العرابية فى مصر صرفت حكومة القاهرة إلى التفكير جديا فى أمر ثورة المهدى الخطيرة واكتفت بأن استدعت رؤوف باشا وعينت بدلا منه عبد القادر باشا حلمى حكمداراً على السودان .

وما كاد عبد القادر يصل إلى الخرطوم حتى حصنها وجند العساكر من السودانيين . وخفف عن الأهالى ما كانوا يشكون منه وفك حصار سنار ونكل بزعماء الثورة وحمل علماء الدين على نشر الرسائل فى تكذيب المهدى وادعائه وضيق على أنصاره الخناق وسد عليهم المسالك ، ثم حاصر المهدى وأنصاره فى كردفان وهى منطقة صحراوية ـ كان من رأى

عبد القادر باشا أن حصارهم فيها وقطع الموارد عنهم كفيل - بمرور الزمن - بأن يقضى عليهم جميعا بسبب الجوع فلا تلبث نار الثورة أن تخمد جذوتها . وادرك عبد القادر نجاحا ملحوظا فصار المهدى يبتهل إلى الله فى جميع صلواته قائلا : « اللهم يا قادر تكفينا بطش عبد القادر » . ومن الروايات الذائعة فى السودان أن الإنجليز عندما علموا بنجاح عبد القادر غضبوا ووشوا به لدى الخديوى زاعمين أنه يريد الاستقلال بالسودان . لا سيما وأن العرابيين هم الذين عينوه فى هذا المنصب . . . فاستدعاه الخديوى وكانت مصر فى ذلك الحين فى قبضة الاحتلال البريطانى

. . .

وعين الخديوى علاء الدين باشا حاكما إداريا وعين سليمان باشا نيازى قائدا عسكريا - فى الظاهر . وهكس باشا قائدا عسكريا له السلطة الفعلية على ١٢٩٠٠ جندى من فلول جيش عرابى وخرج هكس لمحاربة المهدى فى كردفان على رأس هذه الحملة الكبيرة فكان نصيب هكس الهزيمة الماحقة فى صحراء كردفان وسقطت المهمات والأسلحة والذخائر فى أيدى المهدى غنيمة باردة . وعندئذ رأت الحكومة الانجليزية أن تعين غردون باشا حكمدارا على السودان وأن يعهد إليه باخلائه . . .

فانظر كيف تمت فصول الكارثة على يديه ! !

قبل أن يصل إلى بربر أبرق غردون إلى مديرها حسين باشا خليفه بأن ينشر فى طول البلاد وعرضها أن مصر قد تخلت عن السودان وأنه قد عين واليا مفوضا على السودان يتصرف فى شئونه كما يريد . . . وأنه

أى غردون قد ولى محمد أحمد سلطانا على كردفان ولقبه بصاحب العظمة وأنه سيعزل كل الموظفين . ويولى نظار القبائل والعشائر حكاما . وأنه أعفى السودانيين من الضرائب المتأخرة لغاية سنة ١٨٨٣ كما أعفاهم من الطلبة مدة سنتين من تاريخ وصوله ، وأنه سيخفض الضرائب إلى نصف ما كانت عليه وأنه ألغى كل الأوامر الخاصة بمنع الرق وأباح الاتجار به وفضلا عن ذلك أرسل غردون من كورسكو هدية ثمينة مع رسالة إلى محمد أحمد ثم كلف حسين باشا بارسال الرسالة والهدية مع رسول خاص إلى عظمته .

وعند وصول غردون إلى بربر جمع العمد والنظار وألقى عليهم خطابا حوى أنباء كل ما تقدم ثم اردف قائلا :

« خلاص . حكومة الخديوى انتهت من السودان . وكل من يرغب فى الذهاب إلى مصر يرسل على نفقة الحكومة . »

ثم أمر بفتح الطريق بين بربر وكردفان . لم يكتف غردون بما فعل بل أعلن أنه يعتزم إرجاع السودان إلى الحال التى كان عليها قبل الحكم المصرى . وعندئذ نصحه حسين باشا خليفه بالعدول عن هذا العزم قائلا : « ولو أن القبائل متنافرة ولا يربط بينها رابط إلا أنها سوف تنضم إلى المهدى فى آخر الأمر » . ولكن غردون لم يأخذ بنصيحة حسين خليفه باشا .

وفى بربر أصدر منشورا أمر بأن يلصق على أبواب المديرية وباب الضابطية وفى شوارع المدينة قال فيه « أنه حضر بقصد اعاده العساكر المصرية إلى مصر - وأمر بفتح الطريق بين بربر وكردفان — وكان مغلقا بسبب الثورة - وأن الجناب العالى الخديوى قد ترك السودان لأهله..الخ» فأخذ الناس يهاجرون إلى المهدى أفواجا أفواجا بعد فتح الطريق وبعد سماع تصريحات غردون وكان من جملة من هاجر فى مبايعة المهدى «القاضى محمد الخير» الذى عاد وفتح مديرية بربر فيما بعد باسم المهدى .

وعند وصول غردون إلى الخرطوم (١٨ فبراير سنة ١٨٨٤) استقبله على الشاطىء جمع من الجند وقناصل الدول ورؤساء الأديان والعلماء . وقصد غردون إلى مبنى الحكومة ودخل ديوان الحكمدارية وكان غاصاً بالعمد والأعيان والتجار فأخرج من جيبه فرمان توليته ودفع به إلى الشيخ المجدى فقرأه الشيخ على الجمهور بصوت جهورى ثم وقف غردون خطيبا فقال :

« بمقتضى هذا الفرمان قد سميت حاكما مفوضا مطلق التصرف على السودان وسكانه » ثم أمر فجمعت سجلات الضرائب وأحضرت إلى الساحة العمومية ووضعت فوقها السياط وغيرها من آلات الضرب وأضرم فيها النار . فضلا عن ذلك فقد ذهب غردون إلى السجن وأطلق سبيل الجميع ، ما عدا القتلة ، ووزع منشورا على جميع سكان الخرطوم وضواحيها جاء فيه ما نصه « يا أهالى السودان إعلموا بأن راحتكم هى

غاية ما نرجوه وبما أننى أعلم علم اليقين أن إبطال تجارة الرقيق قد ساءتكم وهالكم ما وضعته الحكومة عليكم من قصاص وعلى من يزاولها من تعذيب وغير ذلك مما صدر من الأوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماسا لراحتكم أن أبطل كل تلك الأوامر وأمنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم أحد فى اتخاذ الرقيق لخدمتكم » . ثم وزع منشورا آخر قال فيه : (١)

« يا أهل السودان قد فصل السودان عن مصر فصلا تاماً فجعلت محمد أحمد المهدى سلطانا على كردفان وقد جئتكم حاكما مفوضا على السودان وألغيت الأوامر الصادرة فى منع الرقيق وأعفيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن الضرائب سنتين فى المستقبل وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ولقد ندبت الشيخ عوض الكريم بك أبوسن ليكون مديرا على الخرطوم بدلا من على بك جلاب الذى رفته » .

---

(١) عجيب هذا التناقض من غردون ! ! الم يعين خلفا لصموائيل بيكر من قبل حاكما عاما لمناطق خط الاستواء لابطال تجارة الرقيق ؟

— أيسالم غردون مملاشن عليه بالامس حربا عوانا وباسلوب هدام وحشى؟

— الم يقيم غردون فى السودان حياة كلها رعب وفزع من أجل مصادرة الرقيق ؟

— هل ارتاحت إنجلترا لهذا النبأ؟ وهل حركت ساكنا لهذا الامر الخطير؟

— هل احتجت جيمعية ابطال الرق ؟ وهل نشطت الدول وحركت ساكنا؟

لقد وقف مجلس العموم البريطانى بجانب غردون وحبذ عمله ودافع عن سياسته وردوها إلى مقتضيات الموقف ونزولا على حكم الظروف المحلية وهم الذين كانوا بالامس ينددون بالابطاء فى اباحة الرقيق . . . . ؟ ! !

وأصدرت حكومة غردون منشورا رسميا وزعته فى أنحاء البلاد فحواه أن الجنود البريطانيين أطفأوا ثورة أحمد العرابى فى مصر فاستخدم المهدى محتويات هذا المنشور فى أغراضه وعلق عليه شرحا من عنده وأذاعه فى طول البلاد وعرضها ومن قول المهدى فى هذا المنشور أن حكومة مصر الاسلامية حاربت الانجليز حربا دينيا صليبية واستولوا عليها وبذلك سقطت مصر فى يد الانكليز وقبض على كبرائها وأبعدوا عن بلادهم فصدقت الأهالى قول محمد أحمد لأن ما ذكره لم يكن سوى تأييد لأخبار الحكومة الرسمية .

وبعد أيام فرضت ضريبة على أصحاب الأملاك والحرف وهى ضريبة (المردان) أى تقديم الشبان الأرقاء لادخالهم فى سلك الجندية فكان على الأهلين أن يقدموا إثنى عشر الف من الشبان الرقيق وكان ثمن الأمرد حوالى عشرة جنيهات فلما سمع النخاسون بذلك رفعوا ثمن الأمرد إلى الضعف . فذهبت هذه الضريبة بما كان متبقيا من مال قليل لدى أهل الخرطوم . تبع هذه الضريبة فرض ضرائب أخرى دفعها أهل الخرطوم واعتقد هؤلاء أن هذه الأموال جميعا قد تسربت إلى جيوب السادة من الموظفين .

ومما زاد الطين بلة أن أهل الخرطوم استيقظوا ذات صباح فوجدوا شوارع المدينة مليئة بأوراق مكتوب عليها باللغات العربية والانجليزية والفرنسية «ياأهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصا قد استولت

حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا لأنفسكم الحرية — الامضاء — رجال بريطانيا العظمى » .

. فارتاع الناس لهذا الخبر المشئوم وبينما هم يتدبرون معنى ما جاء فى هذه الأوراق وإذا بمنشور آخر يخرج عليهم ممهورا بامضاء كبير رجال الحكومة الانكليزية فى مصر يقول « إن حكومة جلالة السلطان عبدالحميد لم تعد قادرة على تحمل نفقات حربها مع الروسيا ولذلك باعت قسما من أملاكها التابعة لمصر وهو السودان المصرى : لحكومة جلالة الملكة فيكتوريا وتقاضت ثمنا لذلك خمسين ومئتين مليونا من الجنيهات وشروط البيع أن السودانيين ليسوا من أحرار المسلمين بل هم زنوج أرقاء تأخذهم الحكومة الانكليزية وتبيعهم فى أوربا والهند وغيرهما من بلاد البيض حتى إذا أمسكتهم حكومة انجلترا جميعا وأنفذت فيهم ما تشاء وخلت بقاعهم من بنى جلدتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانيين ليسوا باحرار ولا مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها ليشاهدوا بأعينهم هل القوم كما تقول حكومة الآستانة التى يعدونها قدوتهم دينيا وسياسيا أم الحقيقة أن ذلك ناشىء عن حيف الاتراك وبغضهم للجنس العربى الذى منه السودانيون والأمل وطيد أن يكون هذا القول صحيحا وهو رأى حكومة انجلترا .

(وحمل هذا المنشور قوم من السياح الانجليز يعضدهم كثيرمن

مأجوريهم وأخذوا يطوفون فى أنحاء البلاد ويحادثون الناس ويعطونهم المنشورات ولسوء الحظ كانوا يلاقون قبولا والأهالى يصدقونهم كأن هذا المنشور منزل من السماء وكأن حامليه من الملائكة الطاهرين) على حد ما جاء بمجموعة جريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ صحيفتى ١٨٥ ، ١٨٦ .
واستغل محمد أحمد هذا المنشور وكتب منشورا من عنده حمل فيه على الأتراك حملة منكرة كان قصده منها إبطال نصائح العلماء لأهالى السودان لا سيما نصيحة استاذه السيد محمد شريف نور الدايم الذى كتب كتابة كان لها تأثير حسن أبان فيها أن أمام المسلمين الذى تجب طاعته هو أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد وسمو الخديوى محمد توفيق نائبه على مصر والسودان وأن طاعتهما واجبة على المسلمين .

مضت الأيام سراعا والحال فى الخرطوم تزداد سوءا وعمد غردون إلى إرسال وكيله استورت بك فى باخرة نيلية إلى النيل الأبيض لاشاعة الطمأنينة فى النفوس ويعرف الأثر الذى أحدثته منشورات غردون وصحب استورت فى هذه الرحلة الشيخ عبد الرحيم شيخ الدويم والشيخ عبد القادر قاضى الكلاكلة وغيرهما من أعيان البلاد . فلما وصلوا الدويم وجدوا الثورة مشتعلة بقيادة أحمد الكاشف وعلى ذلك فإنهم ما كادوا يقتربون من مكان الثوار حتى بادرهم هؤلاء باطلاق الرصاص عليهم فينقلبوا راجعين إلى الخرطوم .

ثم ذهب الشيخ عوض الكريم بك أبوسن إلى الجزيرة ليرى تأثير

منشورات غردون فى نفوس الناس . فلم يعد إلى الخرطوم بل أرسل ولده ، على الهد ، ليخبر غردون بأن منشوراته كانت بمثابة صب الزيت على النار . وان الثورة مشتعلة فى كل مكان . وأن هذه المنشورات لم يكن لها من أثر سوى إظهار عجز الحكومة وحمل الأهالى الذين كان ما تزال لديهم بقية من أمل فى هذه الحكومة على تركها والانضمام إلى المهدى قبل فوات الفرصة .

وعند ما طلب غردون من الجعليين والدناقلة والشايقية وقبائل النيل معاونه الحكومة امتنع هؤلاء عن تأييده بسبب قتل سليمان الزبير وأعمامه وهدر دمائهم ودماء ذوى قرباهم كما ذكروا له مافعله من قبل مع الجلابة ومصادرة أموالهم وقتلهم فى خط الاستواء أولا ثم هدر دمائهم ثانيا فى دارفور وكردفان كما سبق بيانه وكما أثبته سلاطين باشا (فى كتابه السيف والنار فى السودان)

وهكذا وصل غردون باشا بسوء تصرفه إلى حالة من الحروجة خطيرة أصبح معها فى هم مقيم وندم أليم . فالثورة متأججة فى جميع الجهات والطرق مسدودة — طريق بربر وطريق سواكن — يسيطر على الطريق الأول محمد الخير وعلى الطريق الثانى عثمان دقنه . وعندما اشتدت بغردون المحنة لم يجد مخرجا من ذلك كله إلا بالالتجاء إلى غريمة الزبير باشا . لأن الزبير فضلا عن علو نسبه على نسب محمد أحمد فهو معروف عند أهل السودان كافة بالشجاعة والكرم وحسن السياسة وأهل الخرطوم

وضواحيها من أهله وأنصاره ومريديه . وله أفضال عدة على كثير منهم منذ أن كان حاكما على بحر الغزال ودارفور .

والحقيقة أن الزبير باشا كان رجل الساعة فهو الند المتفوق على محمد أحمد بل ويفوقه قدرة ومكانة . وفى استطاعته أن يجمع جميع القبائل حوله فتعلوا كلمته يقينا على كلمة محمد أحمد المهدى . فبعث غردون يطلب ارسال الزبير إلى الخرطوم حتى يوليه على السودان بشروط معينه (وهذه الشروط واردة بتاريخ السودان تأليف نعيم شقير) ولكن الحكومة الانكليزية رغم الحاح غردون والخديوى وكرومر رفضت ذلك رفضا باتا بدعوى أن جمعية إلغاء الرق لم توافق على إعادته إلى السودان . ومن ذلك الحين بات مصير غردون أمرا مفروغا منه فإنه سرعان مادارت الأيام دورتها بعد ذلك ، وهبت العاصفة فهجم الدراويش على الخرطوم — وسقطت عاصمة السودان فى أيديهم ، فكان القتل والتشريد وكان السبى والسلب ، ولقى غردون حتفه ، وقتل من معه من الابرياء .

وبسقوط الخرطوم سقطت السودان فى قبضة المهديين (سنة ١٨٨٥) وبدأ الانجليز يفكرون من جديد فى خير الوسائل التى تمكنهم من حبك خيوط مؤامرتهم ليس فقط لانهاء حكم المهدية بل — وكان ذلك من أهم أغراضهم — ولاخضاع السودان لسيطرتهم والاستئثار بالنفوذ الأعلى فى حكومته على نحو ما أيدته الحوادث بعد ذلك بسنوات قليلة .

محتويات الكتاب